عوامل امتياز الإسلام

«شهادة غربية»

شهادة المستشرقة الألمانية

«سيجريد هونكه»

أما هذه الشهادة التى تأتى ضمن هذه الشهادات العلمية الغربية، المنصفة للإسلام، فهى للعالمة الجليلة، والمستشرقة الألمانية الشهيرة «سيجريد هونكه»، التى ولدت فى ٢٦ إبريل سنة ١٩١٣م، بمدينة «كيل» الألمانية ـ والتى تخرجت فى جامعات «كيل» و«فرايبورج» و«برلين». . والتى تخصصت فى الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات.

ولقد حصلت «سيجريد هونكه» على الدكتوراه من جامعة «همبولدت» ـ فى برلين سنة ١٩٣٩م ـ بأطروحة عنوانها «حول تأثير الأنماط الغربية فى ضوء فن الغزل العربى والألمانى».

وقامت بتدريس الفلسفة. . وعلم النفس الجمعى للشعوب. . وعلم الأديان المقارن. . واللغة الألمانية وآدابها. . وتاريخ القرون الوسطى. . فى كثير من الجامعات.

كما قدمت للمكتبة أعمالها الفكرية المتميزة، التى تخصصت فى دراسة الإسلام وحضارته، مقارنة بالحضارة الغربية والنصرانية. . ومن هذه الأعمال الفكرية:

١ ـ «شمس الله تسطع على الغرب» سنة ١٩٦٠م ـ ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة ـ وصدرت ترجمته العربية ـ بعنوان «فضل العرب على أوروبا» سنة ١٩٦٤م.

٢ ـ و«العقيدة والمعرفة» الذى صدرت ترجمته العربية سنة ١٩٨٧م.

٣ ـ و«الله ليس كذلك» الذى كتبته أوائل تسعينيات القرن العشرين ـ وصدرت ترجمته العربية سنة ١٩٩٥م.

٤ ـ و«قوافل عربية فى رحاب القيصر» سنة ١٩٧٦م ـ عن الصلات التاريخية بين العرب والألمان.

ولقد أسست «سيجريد هونكه» لمشروعها الفكرى ـ المقارنات الحضارية والدينية ـ سنة ١٩٧٣م رابطة حملت اسمها.. وتولت الرئاسة الفخرية لها.

وهى عضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بمصر ـ وحاصلة على كثير من الجوائز والأوسمة العالمية.. ومنها: جائزة وسام الفيلسوف «كانت» سنة ١٩٨١م، وجائزة الشاعر «شيللر» للألمان سنة ١٩٨٥م. ووسام الاستحقاق والتقدير المصرى من الطبقة الرفيعة فى العلوم والفنون سنة ١٩٨٨م.

***

وفى هذه الشهادة تؤكد الدكتورة «سيجريد هونكه» على:

١ ـ سماحة الإسلام.. فى مقابل التعصب الأعمى للكهنوت النصرانى الغربى..

٢ ـ والفهم الغربى الخاطئ للجهاد فى الإسلام.

٣ ـ والنموذج الإسلامى المتميز لتحرير المرأة وحريتها.

٤ ـ وتميز العقل اليونانى بالطبيعة التأملية التجريدية.. المحتقرة للعمل اليدوى، وللتجربة فى الطبيعة، الأمر الذى جعل هذا العقل

لا يتخذ من الطبيعة مصدراً للمعرفة، ولا من التجريب أداة لاختبار صدق المعرفة. . فوقفت المعرفة ـ لديه ـ عند العقل، لا الواقع، والفلسفة، لا العلم. .

٥ ـ وتميز العقل المسيحى الأوروبى بالموقف المعادى من معرفة الطبيعة، التى عَدّها خطيئة. . وشهوة مماثلة لشهوة الجسد الكامنة فى الحواس. . كما عَدَّ العقلانية إثما. . وحصر المعرفة فى اللاهوت والإنجيل وحده. . فالمعرفة. . عند هذا العقل النصرانى الأوروبى ـ ليست فى هذا العالم. . والبحث عنها فى غير الوحى خطيئة وإلحاد.

٦ ـ ورفض المسيحية الأوروبية للفكر اليونانى وتراثه ـ على حين أحياه الإسلام. .

٧ ـ وتميز العقل الإسلامى والعربى بـ:

ـ التسامح والتفاعل مع المواريث الحضارية. . وإنقاذ هذه المواريث من الضياع.

ـ وأثر التسامح الإسلامى فى إبداع الدراسات المقارنة.

ـ وتميز الحضارة الإسلامية بالإبداع فى العلوم المدنية والحضارية منذ فجر ظهور الإسلام.

ـ والإبداع الإسلامى للمنهج التجريبى، كأثر من آثار الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة. . الأمر الذى ميز العلم الإسلامى، وحقق الإضافات التى تجاوزت العلم اليونانى. . وصححته بالتجربة. . التى نهضت على أساسها أوروبا نهضتها الحديثة.

ـ وأثر التجريب فى العلم الإسلامى على نشأة المنهج الاستقرائى، المنطلق من الجزئيات إلى الكليات والقانون.

ـ وأستاذية العلماء المسلمين لأوروبا الحديثة .

٨ ـ والدور العلمى التجريبى الإسلامى فى انتصار العقل العلمى الأوروبى الحديث على النظرة اليونانية والنظرة المسيحية للطبيعة والتجريب .

ـ وتبنى العلم الأوروبى للنزعة الإيمانية فى فلسفة العلم الطبيعى ، على النحو الذى سنته فلسفة العلم فى حضارة الإسلام .

ـ وشذوذ العلم الوضعى الغربى ـ المادى ـ عن إسلامية العلوم .

٩ ـ كما تشهد «سيجريد هونكه» لضرورة تميز النهضة العربية المنشودة بمكونات الهوية الحضارية الإسلامية المتميزة . . دونما تغريب واغتراب . . ودونما عزلة وانغلاق . .

نعم . تشهد هذه العالمة الجليلة . . على هذه الحقائق . . حقائق الامتياز الإسلامى . . والتميز الحضارى الإسلامى . . فتقول :

* * *

- ١ -

سماحة الإسلام

«إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذى نما فى ثرى تلك القارة تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان لهما أبلغ الأثر فى ازدهار إسپانيا العربية ـ على العكس من اضطهاد «إيزيدورس» لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين ـ لقد سمح لضروب الفكر على تباين المفكرين واختلافهم أن تتلاقح وتثمر فى تساوق سام، وانسجام تام، دون أن يدب إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها: لا فرق بين العرب والقوط، والبربر والمصريين، واليهود والسوريين، وسكان أيبيريا والفرس، ولقد انسحب ذلك على المسلمين ـ وقد كانوا الأغلبية ـ وعلى غيرهم من اليهود ومن النصارى غير مغبونين».

«إن العرب هم الذين أبدعوا إبداعا، يكاد يكون من العدم، هذه الروعة الحضارية الشامخة فى إسپانيا، تلك الجنة الفريدة الجمال لأساتذة فن المعمار، والمغنين والمغنيات، والشعراء والشاعرات، والعلماء، بل جنة المرأة، التى نسج الغرب حولها صوراً خيالية شيطانية غاية فى الوحشية، دون أن يكون له أدنى معرفة، أو حتى إلهام طفيف ضحل بها».

«إن الكتب، آنذاك، كانت نادرة الوجود شمالى جبال البرانس، حتى إنها كانت فى الأديرة تثبت بالسلاسل، بينما ذهب رجال الدين النصارى آنذاك إلى أن طلب العلم والمعرفة، بعدما أنزل الإنجيل، تجديف وكفر بالله» مثلما زعم من قبل «ترتوليان» (١٦٠ ـ ٢٢٠م) و«أغسطين» (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) اللذان لعنا حب الاستطلاع أو «الفضول المريض»، واصفين إياه بأنه «واحدة من أخطر صور الوسوسة والضلال»، مما يسلم الفضولى إلى الملاحقة والتعذيب..».

*** «وبينما عاشت النصرانية فى ظل الحكم الإسلامى قرونا طوالا - فى الأندلس . . وفى صقلية . . وفى البلقان - فإن «انتصار النصرانية على الإسلام - فى الأندلس سنة ١٤٩٢م - لم يَعنْ سوى طرد المسلمين واليهود واضطهادهم وإكراههم على التنصر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التى قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية دينا، والحرق العلنى فى احتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية . .**

ولم تلغ محاكم التفتيش إلا فى سنة ١٨٣٤م . . ».

«لقد كفلت معاهدة السلطان الكامل(٦١٥-٦٣٥هـ ١٢١٨-١٢٣٨م) - ابن أخ صلاح الدين الأيوبى(٥٦٤-٥٨٩هـ ١١٦٩-١١٩٣م) - مع القيصر فريدريك الثانى(١١٩٤-١٢٥٠م) المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين والاحترام المتبادل، والحرية الكاملة لليهود والنصارى والمسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية فى أنحاء الأرض المقدسة كافة كما شاءوا . . ».

*** «ولقد كتب بطريرك القدس «تيودوسيوس» - فى أوائل القرن الحادى عشر - إلى الأسقف «أجناتيوس» - فى بيزنطة - يقول: «إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويوقرون قساوستنا ورهباننا، ويجلون قديسينا . . ».**

*** «بينما أصدر كبير وعاظ الحروب الصليبية «برنارد كليرفوكس» أمره إلى المحاربين الصليبيين:**

«إما التنصير وإما الإبادة»!

«ووصف المؤرخ الأوروبى «ميشائيل درسيرر» مذبحة المسلمين فى القدس سنة ١٠٩٩م - على يد الصليبيين - وكيف كان البطريرك نفسه يعدو فى زقاق بيت المقدس، وسيفه يقطر دما حاصدا به كل من وجده فى طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ فى غسل يديه تخلصا من الدماء اللاصقة بهما، مرددا كلمات المزمور التالى: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقا إن للصديق مكافأة، وإن فى الأرض إلهًا يقضى» - (المزمور ٥٨: ١٠-١١) - ثم أخذ فى أداء القداس قائلاً: إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب»!

*«وعندما احتل الصليبيون «دمياط» - الميناء المصرى - بعد الاستيلاء على حصنها - [٦١٥هـ ١٢١٨م] أبادوا جميع من بها، بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة . .

فلما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة ١٢٢١م أكرم أسراهم . . ولم يقتص منهم: العين بالعين والسن بالسن، وإنما أطعمهم فى مسغبة أربعة أيام طوالا، مرسلا إلى جيشهم المتضور جوعا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى . . وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى - عالم الفلسفة اللاهوتية «أوليفروس» - من كولونيا نهر الراين بألمانيا - فكتب يقول للملك الكامل:

«منذ تقادم العهود، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، وبخاصة إزاء أسرى العدو اللدود. ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدا طاغية، ولا سيدا داهية، وإنما عرفناك أبا رحيما، شملنا بالإحسان والطيبات وعونا منقذا فى كل النوائب والملمات، ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله؟

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعا، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بها من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان . .».

*«وحين تمكن صلاح الدين الأيوبى من استرداد بيت المقدس(٥٨٣هـ١١٨٧م) التى كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل(٤٩٢هـ ١٠٩٩م) بعد أن سفكوا دماء أهلها فى مذبحة لا تدانيها أى مذبحة وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربا المثل فى التخلق بروح الفروسية العالية.

وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أى التزام خلقى تجاه كلمة الشرف أو الأسرى . . فالملك ريتشارد قلب الأسد(١١٥٧-١١٩٩م) الذى أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربى أن حياتهم آمنة، إذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعا . . »![1]

* * *

ـ ٢ ـ

الجهاد الإسلامى

«إن الجهاد الإسلامى، ليس هو ما نطلق عليه ـ ببساطة ـ مصطلح الحرب المقدسة.

فالجهاد ـ كما يذكر الألمانى المسلم أحمد شميدة ـ «هو كل سعى مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام فى أنفسنا، حتى نتمكن فى هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومى المتجدد أبدًا ضد القوى الأمارة بالسوء فى أنفسنا وفى البيئة المحيطة بنا عالميًا. فالجهاد هو المنبع الذى لا ينقص، والذى ينهل منه المسلم مستمدًا الطاقة التى تؤهله لتحمل مسئوليته، خاضعًا لإرادة الله عن وعى ويقين. إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية للدفاع بردع القوى المعادية كافة التى تقف فى وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعى إسلامى فى ديار الإسلام»...

واليوم، وبعد انصرام ألف ومائتى عام، لا يزال الغرب النصرانى متمسكًا بالحكايات المختلقة الخرافية التى كانت الجدات يروينها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية بعد موت محمد ﷺ نشرت الإسلام «بالنار وبحد السيف البتار» من الهند إلى المحيط الأطلنطى. ويلح الغرب على ذلك بالسبل كافة: بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وفى الجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفى الرأى العام، بل فى أحدث حملات الدعاية ضد الإسلام.

... ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. تلك هى كلمة القرآن الملزمة ـ كما ترد فى الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة ـ. **فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامى، وإنما بسط سلطان الله فى أرضه، فكان للنصرانى أن يظل نصرانيًا، ولليهودى أن يظل يهوديًا، كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم. وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم..**

لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصارى واليهود - هم الذين سعوا سعيًا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين، ولقد ألحوا فى ذلك شغفا وافتنانا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماء عربية وثيابا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربى، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين. لقد كانت الروعة الكامنة فى أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربى، والسمو والمروءة والجمال - وباختصار: السحر الأصيل الذى تتميز به الحضارة العربية، بغض النظر عن الكرم العربى والتسامح وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم.

لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى، فقد كانوا شهود عيان فى الأندلس لقوة جذب المد الروحى والفكرى العربى، الذى سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعا وعن طيب خاطر، يشهد بذلك أسقف قرطبة (القارو) الذى راح يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة تصور بلواه:

«إن كثيرين من أبناء دينى يقرءون أساطير العرب، ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدحضوها، وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم. وأين نقع اليوم على النصرانى - من غير المتخصصين - الذى يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ بل من ذا الذى يدرس منهم الأناجيل الأربعة، والأنبياء ورسائل الرسل؟..

واحسرتاه! . إن الشبان النصارى جميعهم اليوم، الذين لمعوا وبزوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربى! إنهم يتعمقون فى دراسة المراجع العربية بَاذلين فى قراءتها ودراستها كل ما وسعهم من طاقة، منفقين المبالغ الطائلة فى اقتناء الكتب العربية وإنشاء مكتبات ضخمة خاصة، ويذيعون جهرا فى كل مكان أن ذلك الأدب العربى جدير بالإكبار والإعجاب! ولئن حاول أحد إقناعهم بالاحتجاج بكتب النصارى، فإنهم يردون باستخفاف، ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم!..

وامصيبتاه! . إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم، فلا تكاد تجد اليوم واحدًا فى الألف يستطيع أن يدبج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء عدد من يحسن منهم العربية تعبيرا وكتابة وتحبيرا، بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية، حتى لقد حذقوه وبزوا فى ذلك العرب أنفسهم»....

* * *

إن سحر أسلوب المعيشة العربى ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسى «فولتير الشارتى»: «**وها نحن أولاء الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين**»!

ثم راح يصور أحاسيسه وقد تملكه الإعجاب بالسحر الغريب لذلك العالم العجيب بما يعبق به من عطر وألوان، تبعث النشوة فى الواجدان. ثم يتساءل بعد ذلك مستنكرا: «**أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب؟! بعدما أفاء الله علينا، وبدل الغرب إلى الشرق؟!**»[٢].

بهذا انتشر الإسلام.. وليس بالسيف.. أو الإكراه..

* * *

- ٣ -

التحرير الإسلامى للمرأة

* «إن الرجل والمرأة فى الإسلام يتمتعان بالحقوق نفسها، من حيث النوعية، وإن لم تكن تلك الحقوق هى ذاتها فى كل المجالات..

... وفى الحياة الزوجية، التى يهتم بها القرآن اهتماما رئيسيا، تنظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها، وذلك أن كبرياءها تأبى عليها الامتثال والولاء والطاعة إلا لمن ترفع إليه بصرها إعجابا وتقديرا. فالعلاقة بينهما تخضع للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء، ولا تعنى تلك «الطاعة» عبئا ينوء المرء تحته معانيا، بل إن المرء يتمتع بخضوعه هنا، دون الحط من قدره، بل إنه ليبلغ خضوعه أسمى الدرجات، سواء فى عبوديته لله، أو فى حبه من يحب.. وهذا هو الذى عبر عنه ابن حزم الأندلسى (٣٨٤-٤٥٦هـ ٩٩٤-١٠٦٤م) فى كتابه «طوق الحمامة» حيث يقول: «ومن عجب ما يقع فى الحب من طاعة المحب لمحبوبه.. ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة المحب لمحبوبه.. وهذا مكان تتقاصر دونه الصفات، وتتلكن بتحديده الألسنة..».

* «لذلك، فعلى المرأة العربية أن تتحرر من النفوذ الأجنبى.. وإذا أرادت طى صفحة الماضى بخلعها للحجاب، فلا ينبغى عليها أن تتخذ المرأة الأوروبية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدى بفكر عقائدى مهما كان مصدره؛ لأن فى ذلك تمكينًا جديدًا للفكر الدخيل المؤدى إلى فقدها لمقومات شخصيتها، وإنما عليها أن تتمسك بهدى الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتى عشنه منطلقات من قانون الفطرة التى فطرن عليها، وأن تلتمس العربية لديهن المعايير والقيم التى عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع مطلبات العصر

الضرورية، وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة المتمثلة فى كونها أم جيل الغد العربى، الذى يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه».

*«لقد طبع التحدى الذى واجه الفلسطينيات موقفهن بطابع متميز.. فبينما يعانى آلاف الرجال ذل السجون، كان عليهن أن يقمن وحدهن بأعباء الأسرة، وتربية الأطفال وتنشئتهم، أو حماية أنفسهن وأسرهن من الفتك الذريع واغتصاب الزبانية بوحشية السادر. وهكذا لم يكن دور الفلسطينيات جديدا فحسب، وإنما نشأن وشببن ليتولين أدوارا قيادية فى المجتمع، ولقد شاركن مشاركة إيجابية فى حركة الانتفاضة - أو قل جهاد التحرير - على كل المستويات الممكنة.

إن نساء فلسطين العربيات يكتبن بأنفسهن التاريخ اليوم، وهن اللاتى يحملن مسئولية تقرير المصير فى التحول الاجتماعى. فهن يرأسن المؤتمرات الشعبية، وينظمن اللجان والهيئات التعاونية والإنتاجية ويوفرن أماكن العمل والوظائف المختلفة ويشغلنها، وهن فدائيات مجاهدات شهيدات ينتهك الغاصب كرامتهن، ويزج بهن فى السجون ويمعن فى تعذيبهن. ولا ريب فى أن الفلسطينيات سوف يسهمن فى المستقبل إسهاما خطيرا فى تقرير مصيرهن بأنفسهن، ومصير فلسطين. وسوف تتحدد حرية جميع الأرض المحتلة فى ضوء تحقق المساواة وتحرير المرأة»[٣].

* * *

- ٤ -

العقل اليونانى

* **«إن العقل اليونانى الإغريقى عقل تأملى . . يرتاب، ويزدرى، ويتجنب الخبرة الملموسة، والعمل الذى يتطلب الملاحظة المكثفة، مثلما ينكر على الرجل الحر العمل اليدوى الموكول للعبيد فقط فى الحقول، متمما بذلك تحليقه شطر مملكة الأفكار العامة والقوانين. لذا، فإن اليونانى يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة، ولأشكال الفضاء المثالية، فى الوقت الذى يترك مزاولة الأعمال الحسابية إلى البائع فى السوق . .** وهذا التصنيف ينطبق على المراتب الاجتماعية بدءا بالهيئة الحاكمة، ونزولا إلى المهن المبتذلة، كأصحاب الحرف والمهندسين ومهندسى البناء والفنيين وختاما بالعبيد . . ».

* **«والمادة (الطبيعة) لدى حكماء اليونان: نقيضة لله تمامًا** . . والحركة والصيرورة والتحول هى علاقة اللاكمال».

«ورجال من أشباه «هيبارش» (١٢٥- ١٩٠م) و«آريستارش» (٣١٠- ٢٥٠ق . م) و«أرخميدس» (٢٨٧- ٢١٢ق . م) و«حيرون» (حوالى ١٠٠ سنة ق . م)، نادرا ما ينجحون فى إقامة مدرسة فى بيئة ما زال العمل الذهنى فيها يُعَدّ من مهن الأحرار، ويترفع فيه عن قذارة العمل اليدوى، الذى لا يسند إلا للعبيد، وبالتالى لا لزوم إلى التقنية فيه . . ».

«ولقد اعترف «هوميروس» (القرن التاسع ق . م)، بعد صراع طويل مع نفسه، وبندم شديد، أنه طرح جانبا محاولة الغوص فى الحكمة اللاروحية لكتابات الوثنية، حيث قال: «أيها السيد، لو عدت إلى قراءة تلك الكتب الأرضية مرة أخرى، فإنما أنكر بذلك وجودك»!

«وبقدر ما حركت الطبيعة حكماء الإغريق، بدءا بـ «تاليس» (٦٢٤- ٥٥٠ق . م) وانتهاء «بهيراقليط» (٤٨٣- ٥٤٤م)، كان تفاعل «أفلاطون» [٤٢٧- ٣٤٧ق . م] معها

ضعيفا، وجاء فى سن متأخرة. و الفلاسفة الثلاثة متفقون على ذلك تقريبا، إن الحواس لا تقدر على تمييز (معرفة) الوجود الصادق؛ لأنها - الحواس - تخدع الإنسان، إنها لا تدرك غير الظاهر، الشيء المتقلب فى تياره على الدوام، مما كان، عبر ما هو كائن، فيما يئول إليه. إنها مصدر المعرفة الضبابية غير الصافية. ونفس النقص الذى يلازم المعرفة الحسية البشرية، يلتصق بعالم الظاهر المضطرب، المبتعد، المتلون، المتداخل، الهائج النامى، المتحرك، المنتظم والمضطرب، دائم التغير. فظيعة العفونة فى «المادة»!..

ومن خلال اكتشاف عالم المادة والطبيعة، لا يتسنى الحصول على المعرفة. إن التعرف الفعلى على أى شيء لا يتم إلا حين يغادر الإنسان الجسد؛ لأن الاتحاد بالجسد لا يسمح للروح بالعثور على المعرفة..».

«وفى الأفلاطونية الجديدة كان محب الجمال، صاحب الشعور المرهف، يخجل إن هو ملك جسدا. لذا، فإن الروح ذاتها تصبح شريرة حالما تلامس المادة، تُلَوَّث بها وتُلَطَّخ، وتُصاب بالشهوة»..

«ولقد ابتعد أرسطوطاليس(٣٨٤-٣٢٢ق.م) عن الحقيقة لدى تعرضه لطبيعة الطيور؛ لأنه لم يمارس صيد الطيور قط».

«لقد رسَّخ أرسطوطاليس الفلسفة، وأيقظ متعة العقلانية، كما أيقظ ولعًا ذهنيًا فاترًا فى فن البرهنة والمحاجة والجدلية المصاغ منطقيًا، كالتحليل والتمييز، والمفاضلة، والاستنتاج، والتصنيف، والتى تحولت، بالنظر لبقائها بدون مضمون، إلى صبغ هشة..».

«لقد وضع أرسطوطاليس نفسه - كمعلّم للمنطق والجدل - وهو الوحيد الذى حكم العقل وحده، فاتخذ القوانين المنطقية المجردة وسيلة لتأمل الله والعالم».

«لقد أعار أرسطوطاليس اهتمامًا لكل التفاصيل فى حقل المعرفه الحيوانية. لكن مقومات العلم اليونانى لم تتبدل بذلك. **إن الفلك والفيزياء، ونظرية الموسيقى، والكيمياء، والطب، وعلم الحيوان، والنبات اليونانية، تبقى على الراجح فلسفية، وبذلك يونانية المنطق. لقد كانت الحقيقة لدى الحس اليونانى المتأمل، ليس مما تَعُدّه الحاسه واقعا، بل واقعا عقليا فقط..»**[٤].

- ٥ -

العقل المسيحى الأوروپى

* «يقول«بولس»: «لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله . . والرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة»!

«لقد حارب آباء الكنيسة العلم والبحث بحجة أن ذلك«يجعلهم يتردون فى الخطيئة» . . مرددين بذلك ما أكده لهم ترتوليان»، حيث زعم أنه«بعد مجىء عيسى» لا يحق لهم«أن يكونوا محبى استطلاع أو أن يبحثوا فى العلوم، ففى الإنجيل الكفاية».

ولذلك، فلا الروم البيزنطيون، ولا فرق النصارى، سواء الأقباط أو النساطرة، أو القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، هم الذين سعوا إلى إنقاذ حضارة إغريق هلينية - التى كان بعضها قد أبيد إبادة تامة على أيدى متحمسى النصارى النشطين فى مهاجمة العلوم . .».

* وفى النصرانية: «الإيمان هو ألا ترتاب، وألا تسأل» . .

«ولقد وصف الأب الروحى «تيرتوليان» فضول العقل بأنه إثم، فضول فاحش . . أو ليست الشهوة، وهى الأكل من شجرة المعرفة، بقصد الارتقاء إلى مستوى الله، هى الخطيئة التى هبطت بالإنسان إلى الأرض؟ فمن الخطيئة الأولى فى الجنة، حظر الإنسان على نفسه بعدها أن يدعى معرفة ليست من حقه - ذلك الذنب! . . وكان حريا به أن يسعى إلى النجاة بروحه، بدلا من أن ينحرف بالرغبة الجامحة، الخاطئة فى معرفة المزيد! . .

أو لم يصنف الله المعرفة فى الدنيا بأنها غرور؟ ونهى بولس الرسول عن أى نوع من أنواع البحث عن الحقيقة فى هذا العالم؟ لقد جاء: «سأبدد حكمة الحكماء، وأنبذ معرفة العارفين» . .

فإلى جانب الطريق الوحيدة التى تزكى الروح، كان ثمة طريق أخرى خاطئة ملحدة، أى البحث عن الحقيقة - فى مكان آخر غير ما أوحى به من السماء» . .

*«لقد تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية (وقد عُدَّ ذلك من أخطر صيغ المحاولة) لاستقاء المعرفة. **هذا ما قدمه «أوغسطين» مرة وإلى الأبد: «. . لأنه فضلا عن شهوة الجسد التى تكمن فى متعة حواسنا واستمتاعنا - وعبيدها مآلهم إلى الفناء حين ينأون عنك - يحيا فى النفس من خلال نفس الحواس ميل وفضول. . يُسيِّج بقناع العلم والحكمة. .»** .

ومن هذا الفضول القاتل، الذى ينشأ من هَرْش نحو حب المعرفة والابتكار، رغب الناس المتطلعون إلى اكتشاف الطبيعة - ولئن كانتْ هذه المعرفة ليست ذات قيمة لهم - فى الاكتشاف لمجرد الرغبة فى المعرفة، وانصرفوا إلى الاهتمام بمسار الكواكب بدلا من العناية بشفاء روحهم المذنبة التى تحدق بها الأخطار. ولقد أطلقوا على ذلك أيضًا، سوء استعمال قوى العقل، إن هو عُنى باستكشاف الطبيعة، بدلاً من التوجه إلى تعاليم الدين الموحى به. .» .

«وكما أراد «أوغسطين»: نشأ بدافع الفضول المريض، مجرد النزعة إلى التجربة والابتكار، وبها ظهرت إحدى أخطر صيغ التجربة» .

«وكما قال بولس الرسول: «يوجد مكتوب: أريد أن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء. . وإن الغباء الموجود فى الوجود اختاره الله. وهذا يسىء إلى الحكماء»!

«أينما وضعت المسيحية قدمها، فى الإسكندرية وبيزنطة، فى اليونان وروما، وفى فرنسا وبريطانيا، أدت إلى تقلص مروع للثقافة» .

«لقد فصلت المسيحية فصلاً مطلقًا بين الحياة الأخروية العلوية، والدنيوية، الأرضية المكتظة بالنقائص. وكل ما هنالك قابل للقسمة بعمق، وتُلْقَى بينهما العداوة بلا أمل للتوفيق: الله والعالم، الروحى والدنيوى، والروح والجسد، الرجل والأنثى. لقد تعلموا ذلك من أوغسطين أساسًا» .

*«ولم يكن لدى المسيحية، كهدى سماوى، أسئلة توجهها إلى العالم، ولقد سمحت للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة إليها:

- أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هى السبب فى إنزال الخطيئة إلى العالم؟

- أو لم يصف الله حكمة العالم بأنها غباء؟ «ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة».

وإلى جانب الطريق الروحية، الوحيدة الموصلة للروح، إلى الله، عُدَّ كل طريق للبحث عنها فى أى مكان آخر عدا الوحى خاطئًا مارقًا. . أن تكون محبًا للاطلاع، وأن تبحث بعدما بُشِّر بالإنجيل أمران جعلهما «تير توليان» و«أوغسطين» ورئيس أساقفة «تمبير» إثمًا عظيمًا وخطيرًا».

«ولقد شهّر الراهب «أبسالوم» - من دير سانت ڤيكتور - بالفضول الكافر المتزايد نحو معرفة شكل الأرض، وطبيعة عناصرها، وموقع النجوم، وطبيعة الحيوانات، وقوة الرياح، وحياة النباتات والديدان».

«إن الديانة المسيحية السماوية، لم تكن خالية الوفاض فقط من أسئلة توجهها إلى العالم؛ لأن مشيئة الله ليست موضع سؤال، بل لأنها فضلاً عن ذلك غير قابلة للحساب، وفى رأيها: لم يكن ثمة باعث، بل ولا حق أيضا فى تقصى الأسباب».

واستنادا إلى خلفية الفكرة المسيحية عن العالم (صورته)، كما رسمها اللاهوتيون طبقا للإنجيل، ومؤازرة من خادمهم - سواء بأوغسطين أو أفلاطون، أو الأفلاطونية الجديدة، أو الفلسفة الأرسطوطاليسية - فإنه لم يكن بالإمكان قط نشوء علم طبيعى. لماذا؟

إن الثنائية المسيحية عملت على رفد الطبيعة بنظام خارجى، عن طريق إله أخروى، دخل فى هيئة غيبية سواء أكان بمعجزة، بالرحمة أو العقاب، بتقمص صورة إنسان، فى عالم أبدى تسيطر عليه العفاريت، وبعد أن انسحب، ما انفك يتدخل يوميًا من خلال سر الأقداس، ومن خلال تقبل الصلوات والجزاء والأعمال الخيّرة. .

ولم يكن للعلم أن يتقدم فى ظل الثنائية الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة، طالما أن العالم المنظور للطبيعة السماوية والأرضية هو لا شىء، مجرد ظل واهن لعالم الفكرة، وأن كل مجهود يبذل لاكتشافها عبث، لا يستسيغه العقل، كما قال أفلاطون: «يجب،

بدلا من ذلك أن ننكب على المهام المجردة، سواء فى الفلك أو الرياضيات والأجرام السماوية، إذا ما طمحنا بصدق إلى فهم الفلك».

*ولقد جاء فى مرسوم رئيس أساقفة باريس «تيمير» بإلحاد«سيجر ـ باربانت»: «**إن ما هو صحيح فى نظر العقل، قد يكون خطأ فى نظر العقيدة**».

*«وإن انصراف أوروبا ذات النشأة المسيحية إلى الله والنفس، فى ذات الوقت الذى تم فيه إعطاء الطبيعة الصبغة الشيطانية، وتلحيد المحيط، أدى إلى تخلف الثقافة، وإلى الركود العقلى إلى درجة العقم. وبدافع الازدراء لأعمالهم اليومية غير المفيدة، انتقد«أيوسيبوس ـ Esusebius» الباحثين فى مصر، قائلاً:

«قليلاً ما نفكر فى أشيائهم، وتيمم روحنا شطر أشياء أفضل».

«**حدث هذا فى الوقت الذى بلغ فيه العالم الإسلامى مستوى عريضًا على طريق تطوير العلوم الطبيعية.. انطلاقًا من الحافز الدينى على النظر فى ملكوت السموات والأرض**.. لقد خلق العرب الفلك خلقًا جديدًا.. ولقد ظهر بينهم فلكيان عظيمان يسمى كل منهما«عمر»، وقد جلسا يومًا من الأيام عند عمود مسجد من المساجد، وأمامهما كتاب الماجسطى، فعبر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا، وسألوهما: ماذا يدرسان؟ فأجابا: «نحن نقرأ ـ أجاب أحد العمرين ـ: تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨].

*«لقد حرمت الكنيسة طرق المداواة الجديدة باعتبارها شعوذة وخرافات باطلة، وظلت ستمائة سنة بحالها مشلولة، دون المضى قدمًا فى تطوير الطب وتوظيفه فى خدمة الإنسان.. وكان الصليبيون فى حملة «دمياط» الصليبية(١٢١٨ ـ ١٢٢١م) يؤثرون ـ علاج جراحهم لدى أطباء خصومهم العرب».

*«ولقد عبر القرافى»(٦٨٤هـ ١٢٨٥م) ـ فى سياق الأسئلة الجريئة ـ عن ذلك، فقال:

«يحرص اليهود والنصارى على القول بأن النُّصب المقدسة تذرف الدمع، ومن أثدائها ينضح اللبن»!

على هذا النحو احتقر العربى المتنور أمثال هذه الخزعبلات، فيما قدر عاليا أصحاب الرأى المشابه فى المسائل التى تتعلق بالكائنات فى الطبيعة، الذين هتكوا حجاب المعجزة الذى غطى فى أوروبا كل شىء».

* «لقد قرأ «ألبرت الكبير» (١١٩٣-١٢٨٠م) شيئا حول الجبر والهندسة، وألّف كتابين عن الحساب كما تعلمها على يد الإخوة موسى الثلاثة - محمد بن موسى بن شاكر (٢٥٩هـ ٧٨٣) وأحمد بن موسى بن شاكر (كان حيّا قبل ٢٥٩هـ-٨٧٣م) وحسن موسى بن شاكر (٢٠٠هـ-٨١٥م) - وثابت بن قرة (٢٤٨-٢٨٩هـ ٨٦٢-٩٠١م)، وبحافز من العرب اهتم بدراسة السكونيات والميكانيك. . وتطلب الأمر من هذا الرجل العنيد. . أن يبذل جهدًا كبيرًا من أجل الحصول على ترخيص استثنائى يخول له حق التعاطى والتعامل مع الفلاسفة الوثنيين (المسلمين) بوساطة من رؤسائه، الذين حرّموا المضى بالانحراف من خلال الاحتكاك بأولئك الكفرة (المسلمين) مرة وإلى الأبد».

«ولقد نص مرسوم سنة ١٢٢٨م الكنسى: «إن على أعضاء الطائفة ألا يدرسوا الفلاسفة الملحدين. . وعليهم أيضًا ألا يتعلموا الفنون الحرة إذن ولا المبادئ الأولية أيضا كالحساب والتعداد، وحساب الأعياد الكنائسية، وأن استثناء خاصًا منح لبعض الشخصيات».

«وكان فلاسفة اللاهوت عندما يصل إلى علمهم أن شخصًا ما يبحث، يرفعون عقيرتهم: إنه ملحد! . . لأنه يطالب بحق الفهم، وبالحق فى معاينة وتحليل ادعاءات السلطات. . وحين يعثرون على شىء غير مدون فى مكان ما، حينئذ يطالبون بإلصاق تهمة الهرطقة. . لقد نظرت الكنيسة إلى العلم بتقزز واشمئزار، وحذّرت وخوّفت الطامحين فى المعرفة الإنسانية. .

ولا عجب أن احتل مؤلف «سكوت إريوچينا» (٨١٠-٨٧٧م) الرئيس الرائع، النابع عن ألمعية فى العقل، وعمق فى التفكير، والذى يدرو حول **[تسخير الطبيعة]** - يحتل المرتبة الأولى فى قائمة الكتب التى حكم عليها بالمروق والمطاردة من قبل رابطة الرهبان، وعُدَّ فى المقدمة، والأكثر قدمًا فى الإلحاد حتى سنة ١٩٤٨م، كما جاء فى آخر إصدار رسمى شهر به دون هوادة. . لقد اتهم بأنه صبى طائش، وأكبر مفتر بالإلحاد الجنونى والحجج الشيطانية المارقة، آثم، بشع، كافر بالله».

«إن حكمًا باللعنة صدر حول كتاب(حول الطبيعة) لإريوچينا من(١٢٠٩م)ـ ومنع من الأديرة وجمعت سائر النسخ المتوافرة وأحرقت ومن احتفظ بنسخة منه عرض نفسه للطرد من الكنيسة وللحكم عليه أمام الرأى العام بالإلحاد».

«وعند«إريوچينا»، فإن الألوهية التى لا تُدْرَك، هى التى تخلق الطبيعة، من حيث يخلق فيها كل شىء ذاته فى خلق دائم، إن الله يبسط ذاته فوق كل شىء مثلما يكمن فيه، ومنه وبه كل كائن حى، والله هو الذى يسع كرسيه السموات والأرض، الفعال لكل شىء، وبدونه لا يتم شىء، ولا شىء سواه يمتد؛ لأنه هو المكان والمحيط لكل شىء. كل شىء من الله، والله فى كل شىء، ولم يخلق شىء من هباء، بل منه وبه قد صار. .

إن ما ذكر هنا يناقض كلية سائر المعتقدات المسيحية فى الخلق، ويناقض الأفلاطونية، والأفلاطونية الجديدة، والأرسطوطاليسية».

«ولقد استخلص«إريوچينا»أن الطبيعة لم تعد الأسفل، المضاد لله، بل إنها خلقت وسخرت للإنسان. . إن لها قيمة، وكينونة وحركة فى ذاتها. . لقد تحررت الطبيعة لتصبح موضوع البحث العلمى».

* «وكان أفلاطون قد شدد على استحالة المعرفة بواسطة الحواس. . واجتمعت الكنيسة والأفلاطونية والأرسطوطاليسية على وصف الأرض وما يعيش عليها كبؤس وضيع، وشبح مرتم فى النتانة، ومادة معتمة، فوضوية، فى مقابل عالم فوقى مثالى، علوى، خليق بالطموح».

* «لقد كان الله، فى نظر القرون الوسطى ـ الواقع تحت التأثير الشديد للأفلاطونية الجديدة ـ هو: المطلق والسكون الأبدى اللامتحرك. فى حين كانت الحركة، على الطريقة الأوروبية، بمثابة شىء ردىء يبعث على الغيظ. . وهكذا قوبل كل تقدم باستنكار، وأصبحت كل محاولة لتغيير الحالة الراهنة وإحلال شىء جديد محلها، أقرب ما يكون إلى الإثم. .

وفضلاً عن الخوف من التحديث، عم ازدراء العمل اليدوى الذى جعل العقلانيين يفضلون التعامل مع الأدوات اليدوية العقلية الخالصة على المادة الوضيعة سهلة التناول. .

أو لم يعد «توما الأكويني» (١٢٢٥ـ ١٢٧٤م) إلى الأذهان تفاهتها إبان الخصومة في القرن ١٣؟ في هذه النقطة أيضًا يتفق الفكر المسيحي واليوناني: «إن أدنى قدر يمكن لأحد أن يلم به عن الأشياء الواقعة تحت نظره، أجدر بالطموح من إلمامة معنية بالأشياء التافهة».

«لقد ألح الإنجيل على خطيئة آدم، مبينًا أن جميع الويلات والشرور المستشرية في هذه الدنيا مصدرها الأول آدم..

لكن الإسلام لا يرى هذا، إذ ينص على أن الله غفر لآدم بعد أن تاب ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]..

والإسلام لا يقول أساسا بوراثة «الخطيئة الأصلية»، ولا بأن أول إنسان كان أثيما، بمعنى أن الخطيئة أو الإثم ليس أصل الفطرة التي فطر الإنسان عليها، بل إن الإثم قد يغتفر إذا تاب الإنسان توبة نصوحا، حيث يغفر التواب الرحيم الذنوب..»[٥].

* * *

-٦-

رفض المسيحية للفكر اليونانى

* «لقد عَدَّ القديس «هيروتيموس» الفكر اليونانى لعنة على البشر، فترجم الإنجيل إلى اللاتينية، بحيث قلبت «الفولجاتا - Vulgata» - [الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لهيروتيموس] سنة ١٥٤٦م - كلا من هوميروس وفرچيل (٧١-١٩ق. م) رأسًا على عقب» . .

* «ولذلك كانت الحرائق المدمرة، وأعمدة الدخان المتصاعدة فوق الإسكندرية، كنز المعرفة اليونانية والهلينية على مدى مئات السنين - **تلك الحرائق التى أشعلتها المسيحية فى هذا التراث اليونانى** - . .

إن السماء تصطبغ باللون الأحمر فوق عاصمة المعرفة على دلتا النيل. هذا فى الوقت الذى تتهاوى فيه درر لا تعوض من الأشعار والفلسفة اليونانية والعلوم **الإغريقية ضحية لعمليات إبادة من تدبير التعصب المسيحى.**

إن إحراق مكتبة الإسكندرية الكبرى والذى يصرون بعناد على تحميل العرب مسئوليته، برغم أنهم فتحوا المدينة، بعد انقضاء أربعة قرون على ذلك الحدث، قد دل هذا الحريق على أنه - بعد دراسة وافية - هو من أعمال الإبادة المسيحية، فضلاً عن أنه دعاية موجهة ضد الإسلام.

وفى عام ٤٧ قبل الميلاد، وفى أثناء مرابطة يوليوس قيصر (١٠١ - ٤٤ق. م) قدمت ٧٠٠ لفافة من كتب مكتبة الإسكندرية طعمًا للنيران. لكنه فى القرن الثالث، وضعت خطط التدمير المنتظمة، فقد قام بطريرك مسيحى بإغلاق المجمع العلمى، وطارد أعضاءه. وفى عهد الإمبراطور البيزنطى «فالتوس» عام ٣٦٦م تم استبدال كنيسة بالمجمع

العلمى، ونهبت مكتبته وبددت، وتعقبوا فلاسفتها تحت غطاء وبتهمة السحر والشعوذة.

وفى عام ٣٩١م استصدر البطريرك «ثيوفيلوس»(٣٨٥-٤١٢م) إذنًا من القيصر ثيودوسيوس يقضى بتدمير أكبر وآخر محج للعالم القديم، وهى أكاديمية الإسكندرية الكبرى(السيرابيون)، وبتقديم ٣٠٠ لفافة، طعمًا للنيران، وبذلك تعرضت البشرية لأفدح خسارة فى تاريخها..

وفى القرن الخامس يعترف آنيوشين - صديق البطريرك سيفيروس، بأنهما كانا عضوين فى مجموعة إرهابية مسيحية فى الإسكندرية، وأنهما قاما بمحاربة العلماء الوثنيين وبمهاجمة دور الثقافة، ودمروا مكتباتهم ومنشآتهم، واختفى بذلك ملاذ آخر من معاقل العلم الهلينى..

وفى عام ٥٢٩م تم إغلاق آخر مدرسة فلسفية فى أثينا. وفى عام ٦٠٠م أحرقت مكتبة بالاتين، التى أنشئت فى روما من قبل أوغوسطوس(٦٣ق.م-١٤م) ومنع تداول المؤلفات الكلاسيكية عامة، والرياضيات بصفة خاصة»[٦].

* * *

-٧-

العقل الإسلامى

***«إن الفكر العربى يحتفل بالواقع الحقيقى، بينما نرى الفكر الهندى يحتفل بالناحية الذاتية كل الاحتفال، خلافًا للفكر اليونانى الذى ينتقل طفرة من الجزئى إلى الكلى، من الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة. فالفكر الإغريقى لم يكن همه الحقائق الملموسة المحسوسة، وإنما وقف بحوثه على مثله العليا، وتحركت دراساته النظرية حرة طليقة من إسار التأثيرات المادية فى مجال الفكر البحت.. أما العرب، فقد سلكوا نهجا وعرا، صعودا من أسفل الدرج فى تسلسل تدريجى يتغلغل دنيا الحقائق العلمية كل منها على حده: المنهج التجريبى القائم على الرصد والملاحظة دون ملل أو كلل، والقياس، والمعادلات والحلول الرياضة، والترقى فى صبر وكبد من الخاص إلى العام. ولئن كان اليونانى فى جوهره من فلاسفة الطبيعة(مع وجود استثناءات) فإن العربى قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفى للكلمة، ومخترع علم الطبيعة التجريبى، ولقد عبد العربى بآلاته حقول العلوم البكر الوعرة تعبيدا، ومهد طرق البحث تمهيدا».**

*«ومن الثابت أن العرب توسطوا لأوروبا فى نقل التراث القديم، بعد أن أنقذوا من الضياع ما تبقى من الأعمال التى تعرضت للدمار بمرور القرون وبسبب التعصب المسيحى، فى واحدة من أكبر عمليات التنقيب والإنقاذ المنتظمة فى تاريخ الفكر البشرى.. وفى وقت قصير آتت البذار اليونانية والهندية غلالا فائضة، بعد أن أجدبت الحضارة اليونانية منذ زمن بعيد..

هل أحدث الرومان أو الفرس الذين كانت المعرفة تحت تصرفهم، ما يمكن مقارنته بهذا؟

إنه التسامح الإسلامى الذى أتاح للعالم الإسلامى أن ينهل من مصادر المعرفة،

حتى الوثنية: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها». . فى حين أن بولس الرسول قذف «الكافرين الباحثين عن الحكمة» وسخر «تير توليان»: «أى توافق يوجد بين الأكاديمية والكنيسة؟ وأى شيء يربط أثينا والقدس؟». . وقد وصف الأب الروحى «أوغسطين» الفضول الملحد بأنه ضرب خطير من المرض. .

لقد كانت العبادة - فى الإسلام - هى التطبيق السلوكى للمعرفة، منذ الوهلة الأولى. .».

*«وعلى حين يصنف اليونانيون البشرية، فى ضوء رؤيتهم المزدوجة، إلى شيئين مميزين كل التميز:

إما وإلا، هلينيين أو برابرة، أبيض أو أسود، وعلى حين نجد أن الاصطفاء المسيحى الجنونى المزدوج، إما مؤمنون أو غير مؤمنين. . نجد المذاهب المختلفة قد عاشت بين ظهرانى المسلمين، فلم يفكروا يومًا فى أن يشنوا عليها حربًا مقدسة. . فالفكر العربى لا يكاد يوجد فيه أبيض أو أسود، إنه يقر تعددا، ويعترف فيه الواحد للآخر بأحقيته. فهو يوفق بين الأضداد، ولا تتضارب فيه الشهوة والروحانية، والإيمان والبهجة فى الحياة، والدنيوى والأخروى، بل إنها أشد ما تكون ميلاً بعضها إلى بعض (فيما بينها). وهكذا أيضا نفهم النظرية والتطبيق»[٧].

*«وبفضل أسلوب العرب الخاص فى التفكير، وتسامحهم، لم ينظر علماء المسلمين - كما هو الشأن لدى المسيحيين - إلى الإنسان مطلقًا من خلال نظارتهم الإسلامية. لقد نظروا إلى الفرديات، وهكذا أيضا قامت العلوم المقارنة. فالبيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٨٤م) سجل الرقم القياسى بكتابه «تاريخ الهند»، وإلى جانب التاريخ السياسى والوضع الروحى للأديان الهندية، وضع فى حسبانه الانتصارات الحضارية والعلمية - وفى [آثار الماضى] يستعرض الأنظمة التاريخية للعرب والفرس والسبئيين والآشوريين واليونان واليهود والمسيحيين فى سياق أعيادهم المقدسة، ودياناتهم، وتاريخهم. . وكذلك صنع ابن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٨-١٠٦٤م) فى مقارنة الأديان. . وابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م). .»[٨].

* «إن المرء ليتخذ من مقولة «هيجل» (١٧٧٠-١٨٣١م) الشهيرة قاعدة: «كان يجب أن تنقضى مئات السنين قبل أن يصبح العقل الأوروبى قادرا على مغادرة عشه، وعلى تحريك جناحيه والاستعداد للطيران».

لكن هذه القاعدة لا تنطبق على العالم العربى الإسلامى، الذى زخر، على العكس منهم، بالإنجازات العلمية المهمة فى تاريخه المبكر بالذات..

إن السيادة الإسلامية فى الشرق خلقت فى وقت قصير حضارة مزدهرة امتد بنيانها زهاء ستة إلى ثمانية قرون، حتى منغوليا فى الشرق الأقصى سنة ١٢٥٨م وفى إسپانيا سنة ١٤٩٢م إلى أن اغتالتها الصفوة الروحية المسيحية، وضحت بمحتويات المكتبات الضخمة».

* **«وإذا احتقر اليونانى الحر العمل البدنى، كاليدوى والزراعى، أو عمل الرقيق فى عقل غير مفيد، باعتبار أن هذا العمل غير كريم (شريف)، واعتبر الاستعمال التطبيقى للمعرفة بمثابة حط من شأن الفكر وتدنيس للمثل العليا لرؤية الأفكار الصادقة، فإن هذا يتعارض تماما مع الواقع التجريبى للعرب.. وهنا تكمن جذور نوع معين من توجيه المعرفة، والتى بسببها أصبح العرب يتمتعون بوزن خاص، علميًا وتاريخيًا، وبتأثير حاسم على أوروپا.. وبفضل هذا الفرق كان العرب أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليونانى، أكثر من سعاة بريد للقديم.. فلم يرتضوا أن يرددوا كالببغاء معارف القدماء، وإنما ابتكروا شيئًا خاصًا وجديدًا».**

«لم يعمل العرب على إنقاذ تراث اليونان من الضياع والنسيان فقط - وهو الفضل الوحيد الذى جرت العادة على الاعتراف به لهم حتى الآن - ولم يقوموا بمجرد استعراضه، وتنظيمه، وتزويده بالمعارف الخاصة، ومن ثم إيصاله إلى أوروپا، بحيث إن عددًا لا يحصى من الكتب التعليمية العربية حتى القرنين ١٦ و١٧ قدمت للجامعات أفضل مادة دراسية، وقد أصبحوا - وهذا أمر قلما يخطر على بال الأوروپيين - المؤسسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية، والجبر، والحساب بالمفهوم المعاصر، وعلم المثلثات الكروى، وعلم طبقات الأرض، وعلم الاجتماع، وعلم الكلام.

وإلى جانب الابتكارات والاكتشافات الفردية التى لا حصر لها فى سائر العلوم التجريبية - التى إما أنكرها وإما نسبها الكُتّاب الأوروپيون إلى الغير - **فقد وضعوا فى يد العالم الأداة المتكاملة الجاهزة، ألا وهى النظام العددى والحسابى، ومناهجهم العلمية الطبيعية فى مجال البحث التجريبى، الذى من العسير تقويم دوره الفعال فى التطور العلمى الأوروبى».**

«إن عـــددا كـــبـــيـــرا من الأعـــمـــال اليـــونانيـــة والإغـــريقـــيـــة لـ: «أيوكيد» و«جالينوس» «وبطليموس» وغيرهم. . قد تم تجاوز بعضها من قبل العرب الذين أمسكو بزمام التراث اليونانى على مدى مئات السنين، وواصلوا السير فيه وتعدوه»[٩].

*«وبالعرب أيضًا، أصبحت الحقائق المتفرقة موضوعًا لسائر البحوث، وهنا أيضا تولد الصعود التدريجى المتأنى، الذى يركن إليه، من الحالات الفردية إلى العموميات، وذاب النهج الاستقرائى ليشق طريقه لمنهج علمى، فيه تحاصر الحقائق بمشاهدات ومقاييسات لا تعرف الكلال، وبعدد لا يحصى، وصبر لا ينفد، وعمل منتظم، من التجارب المتكررة، تحت شروط مختلفة، ثم الحصول على قواعد وقوانين ثابتة، وأعيد النظر فى النظريات، فمنها ما استبدل، ومنها ما اعتمد فى ضوء من حرية الفكر، الذى ظل الشك كالشوكة فى جنبه».

«ولكى نفهم ملمح العلم العربى، ونمطه المتميز بالمقارنة باليونانى، يجب أن ندرك أنه فى حين يتوق اليونانى إلى التجرد من الحس إلى المصادفة، والتغاضى عما هو فردى، كى يصعد نحو المفهوم المجرد، تحتل الخصوصية الفردية مكان الصدارة بالنسبة للعربى. .».

*«وفى الوقت الذى كانت فيه أوروبا منغلقة، تجُدّف فى وحل المؤسسات السلطوية، محرومة تمامًا من الوقوف على قدمين ذاتيتين، تعالت فى العالم العربى دائما أبدا أصوات: «لا أستطيع أن أجارى أرسطوطاليس فى هذه النقطة». «لقد لاحظت. .». «أنا نفسى قد رأيت». «لأننا برغم إجلالنا الكبير لجالينوس، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق».

إن النقد البناء للطبيب عبد اللطيف البغدادى(٥٢٠-٦٢٨هـ ١١٢٦-١٢٣١م)- المتواضع، الذى كان مدرسًا فى سائر العواصم تقريبًا- فجالينوس(١٢٩-١٩٩م) قد درَّس بأن الفك الأسفل يتكون من عظمتين مجتمعتين معًا. ولقد كتب البغدادى: «إلا أننا شاهدنا ألوفًا من العظام والهياكل، وقمنا بفحصها بدقة متناهية، وتحصلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة. وهى معرفة ما كنا لنتحصل عليها من دراسة

الكتب. وكان جالينوس قد علمنا، بأن الفك الأسفل يتألف من عظمتين يجمع بينهما نسيج ضام. غير أنا عاينا ألفى عظم ولم نجد فيها فكّا واحدًا مؤلفًا من عظمتين. إنه عظم واحد دون أى رفو».

وصوت آخر من ابن النفيس(٦٨٧هـ ١٢٨٨م): **«إن ما قاله جالينوس خطأ»**. فلقد اكتشف ابن النفيس لأول مرة، خطأ جالينوس حول دخول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى(الأذين والبطين) فصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح، وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الإسپانى ميخائيل سيرفت. لقد كتب ابن النفيس: **«لكى نصف مهمة كل عضو على حدة. نستند إلى ملاحظة دقيقة ودراسة صريحة، دون الاكتراث ما إذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا».**

***«لقد قال النظّام(٢٢١هـ ٨٣٦م): إن أول شرط للمعرفة هو الشك.**

وبهذه الكلمة المدهشة، وفى زمن سادت فيه العقائد السلطوية، وجه إبراهيم النظام علماء العرب نحو الطريق، وبذلك أصبحت التربة ممهدة أمام التجربة العلمية.. أى التعرف على الشىء عن طريق أفضل معرفة، اكتشاف الطبيعة الحقيقية للأشياء، كما هى عليه، وبالمقدار المتاح للإنسان. وهذا برنامج عمل لا يسلّم بشىء قبل أن تؤكده التجربة..

لقد تطلب العلم العربى:

١ـ التسامح السخى مع كل ما هو غريب، حتى فى القضايا الدينية.. والتسامح مع معرفة الكفار.

٢ـ استعداد النبى بالوحى، وعبر الهداية الدينية الخاصة والعالمية، لا لقبول المعرفة البشرية العقلانية فقط، بل والحث عليها، حتى إن مداد طالب العلم ارتفع إلى درجة التقديس، وأصبح بمثابة دماء الشهداء وليس كما فعلت الكنيسة: حشر المؤمنين فى حيز عقائدى ضيق، بعيدًا عن المتنفس.

٣ـ ولوج الحياة الفعلية، والتوجه الدائم نحو الحاجات العملية، التى أدت إلى

التقارب بين النظرية والتطبيق، لا كما كانت عليه الحال مع اليونانيين البعيدين عن الحقيقة، المتنقلين بين الأعمدة الخرساء، أو غير المعقول، كما هو الشأن فى الدارسين المسيحيين المتزمتين من فلاسفة أوروبا فى جدلهم العقيم، الذين كانوا ينظرون إلى العمل نظرة مهينة.

٤ـ الاستعداد للشك والإصرار على عدم الانصياع للعقائد والآراء الجاهزة، والإقبال على سبر غور كتب المعرفة الداكنة بالحواس والفهم، وشرحها بشهادة العينين والأذنين..

لقد قال الطبيب الغرناطى والوزير ابن الكاتب: **«إن القاعدة التى يجب أن ننطلق منها دائما هى أن برهانا اقتُبس من المنقول، عليه أن يخضع للتغيير، حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسنا إلى صدقه»**.

ولقد تعرف هذا الطبيب العربى إلى طبيعة الأمراض التى وصفت من قبل اليونانيين بأنها دنس أرضى، ومن أوروبا المسيحية على أنها عقاب ربانى.. فعزى وباء الطاعون إلى العدوى، وقال: «إن وجود العدوى قد ثبت بالتجربة، وبالبحث، وبالفهم، وبالتشريح والأدلة الموثقة، وهذه العوامل تهيئ الدليل غير القابل للنقض.

إن حقيقة العدوى تتأكد للباحث الذى يلاحظ كيف أن الشخص الذى يحتك بمريض يصاب هو أيضًا بالمرض، فى حين أن الشخص الذى لا يحتك لا يصيبه المرض. وكم أن نقل المرض فى بيت أو ربع يتم بواسطة لباس أو إناء، علاوة على ذلك، فإن العدوى قد ثبتت عن طريق وافد من قطر يعانى من الوباء فى مدينة ذات ميناء، وعن طريق حضانة الأشخاص المعزولين».

*«ولقد كتب ثابت بن قرة (٨٣٦هـ/٩٠١م) إلى زميله فى الترجمة إسحاق بن حنين (٢٠٢ـ٢٩٨هـ/٨١٧ـ٩١٠م) حول ألواح بطليموس ـ التى ثبت خطؤها ـ: «نحن ـ بطبيعة الحال ـ لسنا بعد فى وضع يمكننا من الإجابة القاطعة عن مثل هذا السؤال. والحسم الموضوعى فيها كان ليتم لو أننا قدرنا على مراقبة الشمس فى الفترة الواقعة بين بطليموس ويومنا هذا. فإذا وجدت إحداها لدى المؤلفين اليونان، فأرجو إفادتى بها، بحيث أتمكن من تكوين حكم أكيد حول ذلك. وأود أن أضيف، بأنه، بعد جلاء

هذه النقطة، فإننى سوف أعالجه هنا. غير أنه ما زال مظلما، ويبدو أنه مجرد تخمين، وعليه لا يمكن قبول هذا الكتاب. **لأننى - من جانبى - لا أريد أن أتبنى ما هو ليس بحكم الأكيد، بل العارى من الشك من كل جانب».**

*«وثمة خاصية للعقل العربى فى الحساب، كانت فى صالح الثقافة والعلم التطبيقى والتجربة، وهى الحدس تجاه كبير الأعداد، والبهجة فى المسائل الحسابية.. لقد جعلوا الأرقام الهندية الغامضة، بواسطة الصفر، أداة طيعة منظمة، سهلة الاستعمال للتعداد العملى والرياضيات التى عُدت من علوم المستقبل، وبذلك تفوقوا بالخطوة الحاسمة على البابليين واليونان والرومان، وحتى على الهنود الذين اشتهروا بموهبتهم فى الرياضيات، وعلى المسيحيين المثابرين فى الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، فى المدن الآشورية وما بين الرافدين».

«لقد حول العرب موروث اليونان فى العدد والحساب من العلاقات الهندسية.. إلى تجبير وترييض الحساب، ثم أخذه رياضيونا الأوروبيون وظلوا محتفظين به حتى يومنا هذا»[١٠].

*«لقد كان جابر بن حيان(٢٠٠هـ ٨١٥م) - الصيدلى - هو «هيبوقراط» الكيمياء.. المؤسس لعلوم الكيمياء، والمتحدث باسمها حتى مطلع العصر الحديث.. كان باحثًا أصيلاً مستقلاً، خلَّف دونه، بطرقه التجريبية المبتكرة، واكتشافه لعناصر ومركبات كيميائية حديثة، نظريات وتجارب الشرق واليونان الكيميائية، وحتى الهلينية ذاتها بمسافات طويلة، أجل، بما أجرى على الحيوانات من تجارب.. وقد تصدى بنقد لاذع لمعالجة الأولين للمسائل الكيميائية والفيزيائية، الفلكية والغيبية.

هنا يتضح دور العرب الأصيل الذى تنبع واقعيته وحقيقيته المبصرة من القناعة، وتقرب من الأشياء بمساعدة الوقائع والتفكير، اللذين بنى عليهما علمه. وبذلك أصبح النزاع مع التراث اليونانى أمرًا محتمًا وقوعه..

والعلم لدى جابر ممكن فقط، حتى يتعرف ويستفسر المرء عن سبب وجود الشىء، وبفضل نظرة جابر الجديدة إلى الحقيقة، يتجاوز جابر كيمياء الأولين المتقوقعة، ويطهرها من أجزائها التأملية غير العلمية، حين ينقى من كيمياء البابليين، واليونان،

والمصريين المتأخرين، والفرس اللاهثين خلف المعجزة، العنصر السحرى المجازى. ويدعو، من خلال تجارب عملية ومنتظمة، إلى تحليل المواد الأولية، وإلى فرزها، وإلى تعريفها. وبدلا من طريقة الصهر البدائية والمستعملة حتى ذلك الحين للحصول على الذهب، كما كانوا يتوهمون، من المعادن، ابتكر محلولا حصل عليه من أحماض الملح وماء الملك. [مؤلف من ثلاثة محاليل مركزة لروح الملح + حمض النتريك]. كما نجح أيضًا فى الحصول على النشادر المعدنى وعلى مشتقاته، الأمر الذى استبدلته الكيمياء القديمة بشكل جوهرى.

وثمة فرع آخر يعد شيئًا مثيرا للقرن الثامن، يعكس عبقرية جابر، وبه بز العلماء اليونان والهلين أيضًا من خلال تصوره للكيمياء العضوية. إن تحليل الجسم إلى العناصر الأولية التى يتكون منها، احتل جانبا جوهريا من علمه، وهو فى النهاية، مرتبط بتحليل الكائن العضوى: «فقد حضّر من المواد الحيوانية والنباتية أشربة (الكسير) سجل مواصفاتها على أسس حسابية.

وثمة مؤلف من نوع خاص يتحدث عن السموم، قام جابر بتجريب تأثيرها على الحيونات أولاً..

على أن ولع جابر بالتجربة مضى إلى مدى أبعد، إنها المغناطيسية التى كانت تأسر لبه، والتى كسب بها قصب السبق. إن المنغاطيس بتأثيره يخترق صفائح النحاس السميكة. أجل، والمغناطيسية تحوله إلى معدن آخر. لقد قاس جابر حمولة المغناطيس تبعا لقدرة الرفع فى وزنها وأثبت أنها تتناقص بمرور الوقت.. كما يستدل على ذلك من أقدم الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عام ٨٥٤م. حيث اصطحب البحارة العرب حجر المغناطيس لتحديد وجهة إبحارهم فى الرحلات الطويلة فى حالة حجب الليل لنجوم السماء».

*«ومن بين أبرز تلاميذ جابر بن حيان: الرازى الطبيب(٢٥١-٣١١هـ ٨٦٥-٩٢٥م) **الذى صنع من الكيمياء علمًا للشفاء**، والذى كان إلى عهد قريب فرعًا من فروع الطب، فرفعه إلى مرتبة مستقلة، علم يقوم على مبدإ خاص، فإذا ما اشتغل جالينوس، ومن بعده ديوسكور يدوس (القرن الأول الميلادى) ذات مرة بالمستحضرات

النباتية، فقد قدم الرازى الآن ـ واضعا أستاذه نصب عينيه ـ الكيمياء غير العضوية كعلم تجريبى وعن إدراك سابق فى خدمة الطب. وجعلها طوع الاستعمال للعلاج الطبى بهدى التجارب على الحيوانات. وقد اتضح له أنه من خلال تحسين استبدال المواد الطبيعية صناعيا، يمكن الحصول على أدوية جديدة لا يمكن وجودها فى الطبيعة. وهذه إحدى مكتشفاته الحديثة، بالقياس إلى القديم. وفضلا عن المواد النباتية والحيوانية، كالدم والحليب والبول والسموم، فقد كان السبَّاق إلى استعمال عدد كبير من المعادن، والملح، والبوريك (بوراكس) ـ وهى كلمة من أصل عربى ـ والزاج والمعادن، والأحجار، والزئبق، والكبريت، وسلفات الزرنيخ. . فقبل استعمالها، اختبر حسب أفضل منهج ـ منهج عربى منذ أيام جابر ـ المواد المستحضرة بطريقة تركيبية فى التجارب على الحيوان وبالتجريب على القردة، طور مركبات الزئبق كعلاج ـ على سبيل المثال ـ لبعض أمراض الجلد. وفى حوزتنا مواصفات كاملة على مثل هذه الاختبارات.

و فى حقل التجارب على الحيوانات، استكمل صيدلة الحشيش والأفيون لغرض التخدير، الذى أثراه العرب من عدة جوانب، فى حين أنه فى أوروبا العصر الوسيط، سرعان ما كان يرتاب فى أمره على أنه من أعمال الشعوذة ساعة تدريسه فيلاحق ويطرد! . .

وكان الرازى أول من حضَّر أحماض الكبريت المهمة، وقد درس بالتفصيل اثنين وثمانين سما متفرقا من عالم الحيوان، والمعادن، وعالم النبات، وعلى سبيل المثال، سموم الفطريات. ويعتبر، بالتعرف إليها ومعالجتها ومداواتها لسموم مضادة ـ يُعَد مكتشفا ومخترعا ـ وما زال المستهلك حتى يومنا هذا، يبتهج فى مودة زائدة بالأدوية سيئة الطعم، قدمها الرازى فى أقراص غلفها بقشرة ظاهرة.

وأخيرا، و من السوائل المتخمرة المقواة، أو المحتوية على السكر، صنع الكحول ـ كلمة ـ عربية ـ ومعناها الناعم.

وقد تم لجابر، والرازى، ومن تلاهما وصف عدد كبير من المركبات الكيمياوية، ومن بينها أكسيد الزئبق، والزنجفرة، والزرنيخ، ونترات الفضة، والشب ـ كلمة عربية أيضًا ـ والزاج الأزرق، والحامض الملحى، ومحلول البوتاسيوم، ومحلول النطرون، ومستحلب الكبريت، ومستحلب الكبد الكبريتى، وأشياء أخرى.

وقد تحصلوا على الكحول النقى الذى استعمل فى الجراحة، وميزوا بين الأحماض والقلويات، وراقبوا زيادة وزن المعادن بالتأكسد والتكبرت، كما عرفوا قبل غيرهم أن النار تنطفئ بمنع الهواء، وطوروا العمليات الكيمياوية الأساسية، كالتبخير، والتصعيد، ومزج المعادن بالزئبق، والتبلر، والتكلس، والتصفية، والتقطير، بحيث فرقوا بين التقطير المباشر بواسطة الحمام الرملى أو المائى.

ولأجل هذا الغرض، وضع صانعو الزجاج السوريون والمصريون، تحت تصرفهم، إنتاجهم الرفيع فى فن تكوير الزجاج بواسطة النفخ، والذى صاغوا من مصهوره اللزج الأشكال التى يريدون. ومن هنا وضعت صناعة الزجاج قدمها بواسطة المصنعين العرب فى مورانو بإيطاليا، وغزت بجمالها غير المعهود أوروبا منذ القرن ١٣، ونخص بالذكر الحلبى منه، الذى كانت سلعه الزجاجية تمثل إحدى أكثر السلع المصدرة إقبالا، وصدرت إلى المختبرات العربية القوارير الزجاجية، وأنابيب الاختبار مع الأنبيق والعُدُل، الذى اخترعه العرب للتقطير، والذى ما زال يحمل الاسم العربى حتى الآن.

وإضافة إلى الفرن الآلى المستعمل من قبل الكيمياويين، صمم الطبيب الأندلسى أبو القاسم الزهراوى (٣٢٤-٤٠٣هـ ٩٣٦-١٠١٣م) فرنًا خاصًا للتقطير بشكل آلى، ومن أجل إثبات الوزن النوعى لمادة قيد الاختبار وتثبيتها، ابتكر ميزانا حساسا بخمس صحاف، إحداها تطفو فوق سطح الماء»[١١].

*** «ولقد كانت براعة العرب فى التجربة وإبداعهم للمنهج التجريبى، سبيلهم إلى نقد الموروث العلمى القديم..»**

فعلى بن عباس - طبيب عضد الدولة (٣٣٧-٣٧١هـ ٩٤٩-٩٨٢م) يقول: «لم أجد بين مخطوطات الأطباء الأقدمين والمحدثين كتابًا كاملاً، يحتوى على كل ما هو ضرورى من أجل تعليم فن الطبابة. هيبوقراط كتب باختصار شديد، وكثير من تعابيره ضبابية وتحتاج إلى شرح.. وجالينوس ألّف عدة كتب لا يحتوى كل منها إلا على جزء يسير من فن الطبابة، غير أن كتبه مفرطة الطول، كثيرة الإعادة والتكرار، ولم أجد له كتابا واحد متكاملا ومناسبا لتعليم المتدربين..

أما ما يتعلق بى، فإنى سوف أعالج فى كتابى كل ما هو ضرورى للحفاظ على

الصحة وعلاج المرضى . . الأمور التى يجب أن يعيها كل طبيب مقتدر ذى ضمير حى . . ».

وفى الأندلس ألف الجراح أبو القاسم الزهراوى(٣٢٤-٤٠٣هـ ٩٣٦-١٠١٣م) كتابا جامعا فى الطب يقوم على التجارب الشخصية، وضع فصله الثالث حجر الأساس للجراحة الأوروبية، ورفع الطب الجراحى - الذى احتقرته المسيحية - كفرع طبى مستقل، يستند إلى التشريح العربى، إلى مضاف الاختصاصات الأخرى سواء بسواء».

* «وفى الأندلس، ألّف الجراح بن زخر(٤٨٤ - ٥٥٧هـ ١٠٩١-١١٦٢م) كتابه الرئيس«المداواة بالحمية والتنفيس» مرشدا للطب، غرضه الأساسى تثقيف المبتدئين من الجراحين من خلال قصص المرضى والأطباء المبرزين».

* «ومخطوط الرازى«حول الحصبة والجدرى»قد ظل يطبع فى أوروبا حتى القرن ١٩».

*** «إن العرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على أعمال الأقدمين، التى كان يكتنفها الغموض فى وضعها المتفكك.**

وهذه شهادة باعتراف جماعى ممن أرّخ للطب. ولقد أعطتهم أوروبا - وهو أمر تندر معرفته اليوم - الأفضلية كأساتذة، وأخذت عنهم معارفها الطبية، أكثر مما أخذت من مصادر اليونان المشوشة المحدودة». .

* «يقول الطبيب العربى ابن الخطيب (٧١٣-٧٧٥هـ١٣١٣-١٣٧٤م): **«إن القاعدة التى يجب أن تستند إليها دائمًا، هى أن برهانا تاما، أخذ بطريق النقل، ينبغى أن يخضع للتعديل إذا ما اتخذ موقفا مناقضا مما يشير إليه إدراكنا الحسى».** . **«ويقول ابن البيطار (٦٤٦هـ-١٢٤٨م): «كل ما كتبته هنا نابع من تجربتى الشخصية. أو من تقارير أمثال هؤلاء المخالفين، الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا ما وجدوه ثابتا من خلال التجربة الخاصة»**[١٢].

*** «ومما لا سبيل إلى تجاهله، عدد الفلكيين العرب الذين لم ينساقوا خلف الاعتقاد السائد الأعمى، الذى قابلت به أوروبا فى القرون الوسطى، أمير الفلك الهلينى**

بطليموس، بل أعادوا النظر فى النتائج التى توصل إليها من خلال المشاهدات الجديدة والحسابات والنظريات المستحدثة فحسنوها، وصححوا الأخطاء، وتجاوزوها فى بعض المسائل..

لقد وضع الفلكيون اليونان بين أيدى العرب بعض أجهزة القياس، غير أنها سرعان ما عجزت عن تلبية المتطلبات المطروحة للقياسات التى يحتاج إليها العرب لأغراض العبادة اليومية. ولكونهم تقنيين غزيرى الخواطر، وميكانيكيين مهرة، فهم يسعون دائما إلى التحسين، ويجرون تعديلات، ويفكرون فى الجديد، ويطورون فى أساليب مشاهداتهم وأدوات القياس المختلفة لديهم نحو الكمال، **بينما يأخذها الغرب عنهم، ويستعملها على صورتها دون إدخال تعديلات عليها حتى عصر ابتكار التلسكوب.** وفى هذه الأثناء تحولت المراصد الفلكية إلى منشأة لا غنى عنها، تم بناؤها من قبل الأمراء الهواة وطلاب العلم، وغالبا ما ارتبطت بأكاديمياتهم، ومن أشهر هذه المراصد، المرصد الذى بناه المأمون (١٩٨-٢١٨هـ ٨١٣-٨٣٣م) فى بغداد- وفى سامراء.. وفى دمشق.. ومرصد العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ ٩٧٥-٩٩٦م) والحاكم (٣٨٦-٤١١هـ ٩٩٦-١٠٢٠م) فى القاهرة.. ومرصد عضد الدولة (٣٣٧-٣٧١هـ ٩٤٥-٩٨٢م) فى بغداد.. ومرصد ملك شاه(٤٦٥-٤٨٩هـ ١٠٧٣-١٠٩٢م) فى نيسابور.. ومرصد أولوغ بيع فى سمرقند».

***«لقد كان البيرونى(٣٦٢-٤٤٠هـ ٩٧٣-١٠٨٤م) أحد أهم علماء العرب فى عصرهم.. ولقد ذهب فى ابتلائه -[اختباره]- الناقد لعقيدة الهلينيين الفلكية مذهبا بعيدا، بحيث رفض صورة العالم البطليموسية- الشاملة للشمس الدائرة حول الأرض.. وفى رأيه أن الشمس ليست هى المسئولة عن تناوب الليل والنهار، بل الأرض ذاتها التى تدور حول محورها مرة فى اليوم، ومرة تنتقل فيها حول الشمس فى عام. فظل البيرونى يقف وحيدا أمام المعتقد السائد حول فكرة «الزحزحة المقدسة».**

* «واكتشاف البقع الشمسية على يد ابن رشد(٥٢٠-٥٩٥هـ ١١٢٦-١١٩٨م) الذى أقدم هو وزميله البطروجى(٥٨٠هـ ١١٨٤م) على رج العقيدة البطليموسية، وعلى تقديم تفسيرات أخرى لمنحنيات الكواكب.

ومارس ابن باجة الأندلسى (٥٣٣هـ ١١٣٨م) تأثيرات أشد بالنسبة إليه، فإن القوة

لديه واحدة، وهى ذاتها، سواء منها ما يحرك الكواكب أو التى تجعل تفاحة تسقط من شجرة، وهو الرأى الذى يجابه الازدواجية اليونانية، والذى يؤثر - بصفته فيزيائيًا - على جاليلى(١٥٦٤-١٦٤٢م) عن طريق العلاقة التى يفترض وجودها بين القوة - السرعة - والمقاومة فى الأجسام المتحركة».

* «لقد أجرى الفلكى الكبير السَّرْقَلى(٤٢٠-٤٨٠هـ ١٠٢٩-١٠٨٧م) - فى طليطلة - ما لا يقل عن ٤٠٢ مشاهدة فكان أول من برهن على أن تغيير بعد الأرض والشمس التى اعتبرها اليونانيون ثابتة، ملائمة (لتقدم نقاط تعادل الليل والنهار). وقد قام جيرهارد - كريمونا، بترجمة مؤلَّف السرقلى هذا إلى اللاتينية، وعرف باسم المؤلف Amzache . وفى عام ١٥٣٠م استشهد كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) فى كتابه الذى نُشر بالفرنسية تحت اسم De Revolution بهذا الكتاب، وبكتاب التبانى[٢٤٤-٣١٧هـ ٨٨٥-١٩٢٩م]. .

*«ولقد تحدث الطبيب الطبرى(كان حيًا قبل ٣٦٦هـ ٩٧٦م) عن كرة نحاسية ضخمة أثارت إعجابه فى عام ٨٥٠م: «أمام مرصد فى سامراء شاهدت جهازًا أشرف على بنائه عالما الفلك والميكانيكيان الأخوان محمد وأحمد بن موسى، وهو يشبه شكل الكرة، ويصور النجوم ورسم البروج، ويعمل بالطاقة المائية، فإذا أفل فى السماء الفعلية نجم، اختفت صورته فى نفس اللحظة من الجهاز فى الوقت الذى يغيب تحت خط الدائرة التى تمثل مجال الرؤية. فإذا طلعت فى الطبيعة صورة نفس الكوكب، أشرقت صورته أيضًا على الجهاز فوق خط الأفق»[١٣].

*«على أن العامل المساعد الضرورى للبحث والتجربة لدى العرب، هو الرياضيات، لقد رأينا كيف أرسى الخوارزمى الأصول الطبيعية للرياضيات التى تمكن من جميع العمليات الحسابية، لكنه لا يكتفى بمساهمته تلك فقط، إنه يضع بين يدى زملائه الباحثين [جهازًا يدويًا لا غنى عنه: الجبر أو علم المعادلات]: الذى يُسمح بموجب هذا العلم استخراج العدد الصحيح، لعدد واحد أو أكثر من المجاهيل. وقد ألّف كتابه فى ٨٢٠م، وهو كتابه الثانى الذى دخل به التاريخ.

وهذا المؤلف البالغ الأهمية، الذى أدخل فيه الجبر ضمن نظام للمرة الأولى، حظى

بتقدير كبير فى العالم العربى، و أعارته أوروبا أهمية غير عادية . . ولقد تتلمذ ليوناردو ـ بيزا (أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣)، رياضى القرون الوسطى الكبير، على يدى الخوارزمى . .

ومن كتاب الجبر لأبى كامل(١٣٢هـ ٧٥٠م) ـ الذى عاش فى مصر ـ ومخطوطات البيرونى وابن سينا(٣٧١ـ٤٢٨هـ ٩٨٠ـ١٠٣٧م) والقرشى نهل ليوناردو معارفه حول المعادلات من الدرجة العالية، وبلغ الجبر ذروته على يد عمر الخيام(٥١٧هـ ١١٢٣م) الذى اعتبر حجة فى نظر الرياضيات القروسطية . .

ولقد أصبح العرب، أيضًا، المؤسسين للرياضيات الكروية، وهى حقل للعلوم لم يكن له وجود عند اليونان . . ووضع العرب الجيب، ونظريات المماس، والصيغ الأساسية لعلم المثلثات، وبذلك يكونون قد أحيوا حقلاً غير معروف حتى ذلك الوقت، ما لبث أن احتل منزلة مرموقة فى مجال الفلك والملاحة البحرية والمسح الأرضى».

*«إن بطليموس لم يعرف سوى وجهين من أوجه الاستعمال الفلكى، وهذه النقطة تلقى الضوء على الفروقات فى الأوجه وحول طبيعة العلوم العربية، وهكذا يعرض الخوارزمى الأربع والثلاثين مسألة، ثم لا يلبث خلَفه أن يتم العدد حتى الألف».

***«وعلى حين كان علم الحساب عند اليونان يعنى التسلية بالتصرف فى الأعداد، والترف الفكرى المحض للمولعين بالتأمل . . مضى الفلكى والحسابى الرقاش بعلم الحساب نحو مرتبة أعلى على سلم الكمال**. ففى كتابه « المفتاح إلى علم الحساب» قدم لنظام المراتب العددية آخر شكل من الكمال، وذلك حين استبدل ـ كأول شخص(عالم) ـ الكسور بالخط المرصوف، وعلم الحساب بالكسور العشرية، وهو إنجاز ما كان لبائعة البيض أو بائع الحليب التوصل إلى نتيجته من دونه فى عالمنا اليوم، ولا كان حساب اللوغارتمات ممكنًا بدونه كذلك»[١٤].

*«يقول ابن الهيثم: **«وليس شعاعًا يغادر العين هو الذى يسبب الرؤية . وعلى الأغلب، فإن شكل الجسم الملموس يشع فى العين، ويستبدل بجسمه الشفاف»**.

ويصف وصفًا دقيقًا عدسة العين، والملتحمة، والإفرازات، وأعصاب الرؤية التى ترسل انطلاقًا من الأجسام انطباعات الحواس.

هل تنشأ هنا صورة مصغرة بسيطة طبق الأصل؟ إن ابن الهيثم لا يحسم المشكلة بهذه السهولة، **فاستنادا إلى التجارب المختزنة، يتوصل الدماغ إلى الانطباعات الحسية الملتقطة - في الحالة الراهنة - إلى استنتاجات عن بعد وإلى شكل الجسم المدرك.**

ترى، ما الذى جعله يتوصل إلى هذه النظرية الصاعقة حول الرؤية، وطبيعة الأشياء وإنجازات الحواس؟ فكونه فلكيًا، واعتمادًا منه على مشاهداته، اكتشف أن سائر الأجرام السماوية ترسل ضوءًا ذاتيًا، بينما القمر وحده يستقبل نوره من الشمس. ولقد اقتبس من ذلك تصورًا جديدًا عن طبيعة الإشعاعات الضوئية: من كل موضع فى الجسم المقابل تجرى مستقيمة فى كل الاتجاهات. وقد برهن على ذلك الشىء فى كل تجاربه بدقة حسابية.

وفى تجاربه التى أجراها.. قاس كل مجالات المبصرات الهندسية وأحيا إحدى حقول الدراسة.. وفى ذات الوقت، **وبينما كان الناس فى ألمانيا يبذلون جهدهم، عند الخسوف لطرد الغول الذى ابتلع القمر، عن طريق العويل والصخب، فى ذلك الوقت، كان الناس على النيل يتساءلون: كيف تحدث ظاهرة الخسوف، طالما أن القمر ذاته لا يضىء، بل يستقبل ضوءه من الشمس التى تكبره، ويظهر مع ذلك ظلا، محجوبا، جزئيا أو كلية؟ وعلى الفور كوّن مصادر استيحائه، ودرس فى ضوء أشد اختلافات التجربة تباينا كل شىء يمكن أن يكون مفيدا فى كتابه «حول طبيعة التظليل» - كما أحب أن يسمى كتابه - وقد سجل سبقًا كذلك، حين جرب بآلة تصوير ذات ثقب واحد، وهو نموذج لأقدم آلة تصوير دلته على انتشار الأشعة الضوئية المستقيم - وقلما كان يطمئن إلى نظره - وقدمت له العالم مقلوبا من خلال انعكاس الصور. وفى هذا الصدد استخدم نفس الترتيب الذى لا بد وإن كان بالمصادفة، استعمله ليوناردو دافنشى فيما بعد. وقد عثر على تعليل لانكسار الضوء الذى يحدث عن طريق الوسائط كالهواء والماء والزجاج، وحسب من بعدها ارتفاع الغلاف الجوى الأرضى بما مقداره ١٥ كم تمامًا، وهو أمر يدعو إلى الدهشة، وأعمل الفكر فى نشوء هالة القمر، والغسق، وقوس قزح، والتى فشل أرسطوطاليس فى إعطاء تفسير فيزيائى لها من ذى قبل، وسلط معرفته كذلك على الأجهزة البصرية.**

لقد بز الكندى (١٨٥ـ ٢٦٠هـ ٧٩٦ـ ٨٧٣م) فى القرن ٩ معرفة اليونان بتجاربه على المرآة الحارقة. أما ابن الهيثم، فقد درس الانعكاس وحسبه فى المرآة الحارقة (كرة ومقطع مخروطى) وعثر على قوانين تأثير الكشاف. ولقد فحص تأثير الاحتراق والتضخيم «بواسطة المرآة المجوفة فقط، بل وبواسطة العدسة المجمعة المكبرة أيضا. **وابتكر كذلك أول نظارة للمطالعة**. وقد برهن على تفوقه الهائل كمنظِّر ومجرب فى التجارب التى أجراها على سير الأشعة داخل كرة. وهى تجارب ما لبث أن واصل تنفيذها بعقله نظيرٌ له ـ كمال الدين ـ من بعده بثلاثمائة سنة.

إن تأثير هؤلاء العمالقة العرب على الغرب تأثير هائل. لقد طغت نظرياته الفيزيائية ـ البصرية، على العلوم الأوروپية حتى العصر الحديث. وعلى العلوم البصرية لابن الهيثم قامت كل بصريات الإنجليزى روجر بيكون (١٢١١ـ ١٢٩٤م) حتى بولونيا (فيتلو) والإيطالى ليونارد دافنشى (١٤٥٢ـ ١٥١٩م) وحتى يومنا هذا، ما زالت المسألة الفيزيائية الحسابية المعقدة التى حلها ابن الهيثم بمعادلته من الدرجة الرابعة، والتى تفشى مقدرته الكبرى فى الجبر، على النحو الآتى تقريبًا: حساب نقطة فى مرآة لها شكل قبه يُعْكَس عليها جسم من مسافة محددة فى صورة معينة، ما زالت تلك المسألة، تسمى باسمه (مسألة الحازم)..».

***«إن مؤلف ابن سينا فى المعادن ـ وهو الذى ذاع صيته كطبيب ورياضى وفيلسوف ـ كان مصدرا رئيسيا للچيولوچيا الأوروپية حتى القرن ١٨».**

*«والشعب العربى الذى أحب التجوال، قد أنجب قبل ماركو بولو (١٢٥٤ـ ١٣٢٣م) عدداً لا يحصى من الجغرافيين، منهم الإدريسى (٤٩٣ـ ٥٦١هـ ١١٠٠ـ ١١٦٦م) ـ من سبتة ـ الذى وصل إلى سواحل انجلترا الغربية والبحر الأسود فى القرن ١٢ وصنف فى بالرمو فيضا من الملاحظات ومخططات الخرائط والمقايسات الحسابية فى مؤلف جامع يقع فى سبعين خريطة، استغرق إعدادها خمس عشرة سنة. كان يشدها ككرة على الأرض ويجرى تقييما لها، **وفى عام ١١٥٤م قدم لملك النورمان فى صقلية خريطة للأرض نافرة أصبحت من بعدُ شهيرة، صنعها من الفضة، حدث ذلك فيما كانت خرائط العالم فى أديرة أوروپا توضع بحسب الإنجيل، يطوق فيها البحر اليابسة، وتقع الجنة فى منتصفها.**

والمسعودى(٣٢٤هـ ٩٣٦م) - من بغداد - الذى حملته مسائل علمية جادة على القيام برحلته الاستكشافية، والذى كتب استنادا إلى مشاهدات خاصة فى بلدان الصين وسيلان وحتى إسپانيا، موسوعة فى ثلاثين مجلدا، أرفقها بوصف للأرض، وبوصف مصور ضخم لعادات الشعوب.

وابن بطوطة(٧٠٣- ٧٨٠هـ ١٣٠٤-١٣٧٨م)، الذى استمرت رحلته مدة أربعًا وعشرين سنة، استكشف فيها شمالى ووسط إفريقيا حتى النيجر، وآسيا الصغرى، والصين وروسيا، وإسپانيا..»[١٥].

* * *

***«لقد أصبحت المصادر الإغريقية - العربية هى ألف باء العلم، وارتفع الاسم العربى فى ذلك الوقت إلى درجة أنه لكى يفسح الأطباء والكيميائيون والصيادلة والفلاسفة الطريق أمام نتاجهم الفكرى فى الأوساط التخصصية، كانوا يطبعونه بالاسم العربى - اللاتينى لابن سينا وماسويه الابن أو جابر، بحيث تعمل على شد اهتمام المتعلمين. ولقد ظلت الكتب المدرسية، ككتاب القانون لابن سينا من المواد المدرسية الراسخة فى الجامعات الأوروپية حتى النصف الثانى من القرن ١٧».**

*«ومن يدرى ما إذا كان كولومبس(١٤٥١ - ١٥٠٦م) قد اعتمد فى مغامرته على الخريطة العربية الأفضل فى نظره؟».

***«إن العرب سبق واستعملوا البوصلة بالسفينة فى القرن التاسع..** وأقدم وثيقة فى هذا الصدد ترجع إلى سنة ٨٥٤م.

«إذا أصبح الليل حالك السواد، بحيث لم يعد يُستدل بالنجم على الاتجاه، غُرست إبرة فى قشة أو نبات الحلفاء، ووضعت فوق طشت فيه ماء، وحُركت بواسطة حجر مغناطيسى نحو اليمين، بحيث إنها تتجه - لدى إقصائها المفاجئ - إلى وضع يظهر الشمال والجنوب. وقد جرت العادة فى المحيط الهندى على أن يستبدل بالأبرة والقشة قطعة من الصفيح لها شكل السمكة، تظهر بالرأس والذنب إثر توجيه وهمى مفاجئ باتجاه السماء».

*«وفى الكتب العربية اشتم وجود أسلحة متفجرة، البيوض المتحركة المحترقة «التى تخرج نارا لها دمدمة مثل الرعود».

ولقد استخدمها العرب فى دمياط ضد جيش الملك القديس لودفيج ١٢٤٩م. . وكان الملك يصيح كلما انطلقت قذيفة: « عزيزى المسيح، احمنى أنا وقومى! ». . وفى سنوات ١٣٢٥م و١٣٣١م و١٣٤٢م استعمل العرب مدافع البارود فى إسپانيا، وتمكنوا من تفريق جيوش الشمال الإسپانى المدعمة من قبل الفرنسيين والإنجليز».

*** «ولقد كانت المعاهد العربية مراكز تعليمية، ومؤسسات مغلقة، مقسمة إلى أربع كليات، وعلى رأس كل واحدة منها عميد. ولكل كلية عدد متماثل من الطلبة، هنا ٧٢ وهناك ٨٢، ومن المنح الدراسية، لأن حصص الدراسة بلا مقابل مادى، وكان المدرسون يتقاضون مكافآت من الخلفاء أو الموقوفين. هذا فى الوقت الذى كان يتقاضى فيه كل طالب دينارًا واحدًا فى الشهر بالإضافة إلى القرطاسية اللازمة.**

وكان الطلاب الوافدون من جميع الجهات، والمنتمون على الغالب إلى ديانات مختلفة، يكونون أربع فئات قومية فى مساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر.

وفى مدارس الأندلس، سُمح أيضًا للفرنجة بالدراسة، وصُمِّمت الأبنية المشيدة على شكل مربعات للإقامة الداخلية، والخدمات، وفضلاً عن ذلك فقد كانت تحتوى على عدة قاعات للمحاضرات، وصالات للعمل، ومكتبة كبرى، وبها تلحق هنا وهناك معاهد خاصة. ويمنحُ العميدُ المرشحَ بعد إجراء امتحان له، إجازة فى التعليم، وبذلك يتحصلون على «البكالوريا» - كلمة عربية أدخلت إلى اللاتينية - على ذمة الراوى - بتخويل من السلطة بتعليم شخص آخر. .

وإن طلبة أكاديمية الفنون الغربية هذه، لم تكن سوى نسخة عن العربية الأصل».

* «لقد أرسل فريدريك الأول باربا روسا (١٦٥٧-١٧١٣م) جرهارد فون كريمونا إلى طليطلة، وجلب المحاربون الصليبيون والحجاج الخبرات والمعارف العلمية، والتحف التذكارية المفيدة، والأجهزة، واستوردت عبر جبال الألب المنتجات الوفيرة لعقول المبتكرين التقنويين العرب، وكذلك الساعات وأجهزة القياسات من جميع الأنواع، والرافعات ومولدات الطاقة، والعدسات والعدسات المكبرة، وغيرها من البصريات، فضلا عن المناظر الفلكية والمعدات الطبية والمعدات المساعدة للكيمياء التطبيقية. هنا هبت فى لفحات قوية مواد وفيرة للبحث لا يمكن تجاهلها، وقدمت محصلات ووسائل بصورة واضحة دفعا مؤقتا أحيانا، وأثرت تأثيرا تدريجيًا فى أحيان

أخرى، فاقبل الأوروبيون بجمال على المادة العلمية الجديدة، وأصبح لزاما عليهم أن لا تملى عليهم الأمور من فوق إملاء. لقد صادف البذار العقلية القادمة من العالم الآخر -[العربى]- استعدادًا داخليا، وهنا وهناك فقط وجدت التربة المواتية المناسبة للطلوع».

***«لقد هاجرت أقواس المساجد الإسلامية، إلى الكنائس القوطية فى شارتر وريم وكولون وسالز بورى».**

*«ومن أكبر إنجازات العرب فى حقل الكيمياء شهادات عدد لا يحصى من المصطلحات المستعملة حتى وقتنا الحاضر، انتقلت إلى لغات أهل الأرض من المفردات العربية، وعلى رأسها تأتى كلمة كيمياء، والأمبيق، والكحول، والبنزين، والبوراكس، ودروجرى، والكسير، وقاليوم، ونطرون، وصودا، وتالكوم، وشيلاق، إلخ..

وبفضل مناهجهم العلمية، طوروا - استنادا إلى رأى المؤرخ الإنجليزى «كاستوم - Custom» الكيمياء حتى هذا المستوى، بحيث إن اكتشافات الكيمياء العضوية كانت مضطرة لأن تعيدها إلى المستوى الذى رفعها إليه العرب..».

***«لقد أثرت العلوم التجريبية العربية تأثيرا أشد من مجرد نوع من شرارة انطلاق لخطة جاهزة للعقل الأوروبى.**

.. لقد أمدت الاستعداد الموجود فى الغرب بالمادة المشتعلة المفجرة، وأيقظت الاستعدادات العقلية التى كانت تغط فى سبات عميق، وأطلقت العنان للقوى التى كانت لا تزال متخلفة، ووضعت التطور العلمى العملى لأوروبا فى المسار الصحيح..»[١٦].

* * *

-٨-

انتصار الفكر الأوروبى على النظرة اليونانية والمسيحية للطبيعة

*«وبعد قرون من التقلب فى ازدراء الطبيعة، والتمرغ فى وهده الإحساس بالذنب، بدأت إرهاصات الإعجاب، وتفتحت الأزاهير فى الشعر أولاً، مؤذنة بتنفس الصعداء، بالإعجاب من معجزات الخالق، وفى التفتح الصادق من الروضة الإلهية الندية، ولعل أجملها ما نجده لدى فريدريك زوننبرج وفرانسيسكو فون آزيزى وغيرهما كثيرون. . كما أن أسلوب الكتابة لدى الفلاسفة، الذين اقتبسوا عن إريوجينا مبدأه، أخذت هى الأخرى فى التفتح والفوحان. وتحول أريوجينا إلى قدوة، وطرقت مؤلفاته آذان أوروبا كلها. . ».

*«لقد أطلق «أدلهرد ثون باث» [١٠٩٠-١١٦٠م] زفرات من أعماقه بعد رحلته فى العالم الإسلامى، وعودته إلى وطنه -بريستول- فكتب فى رسالته [أسئلة إلى الطبيعة] مقارنًا بين موقفين من الطبيعة:

«إننا إن تهاونا وقصرنا فى تفهم أسرار هذا الكون الرائعة، وجماله وجلاله البديع الحكيم، ونحن نعيش فيه، فإننا نستحق كل الاستحقاق أن نطرد منه طردًا؛ لأننا نكون أشبه بالضيف الجاهل حرمة البيت وكرامته الذى أحله إياه المضيف.

لقد أتيح لى أن أتعلم شيئًا من الأساتذة العرب الحكماء عن الانقياد للعقل، أما أنت فإنك تتبع صورة فرضتها عليك هيمنة مستبدة، كأنك مقيد إلى رسن، مأخوذ بمقودك. . ألا فلتعلمن أن الماشية التى يؤخذ بأزمتها إلى أية وجهة، إنما لا تستطيع أن تميز أو تستبين إلى أين ولماذا تُقاد، ولا تملك إلا أن تتبع الزمام الذى يوثقها، كذلك فإن«سلطة المؤلفات» تقود عددًا ليس باليسير منكم، فأنتم أسراها المكبلون، منقادين لها كالدواب بسرعة تصديقكم الحيوانية».

*«ولقد عمل «نيقولاس ڤون كويس» [١٤٠١- م] على رفض وتقويض كامل الصورة اليونانية والإنجيلية للطبيعة والعالم، تلك التى كانت سائدة ومقبولة من غير نقاش، والتى أعارها الناس آذانهم منذ ألفى سنة. لقد أزاح القذارة عن **العالم، الذى كان يُنظر إليه على أنه شرير، وضيع، ملوث، مدعاة للازدراء والشك**، وحتى الموت والفناء لم يعودا مؤشرين على النقص، ولم تعد الأرض أحط وأسفل نقطة فى التداعى الدنيوى العاتى. لقد أزاح «نيقولاس ڤون كويس» هذا الركام عن العالم الذى جزأه اليونانيون والإنجيل إلى شذرات، وتلقاه إنسان الغرب فى تلك الصورة عن طريقة التعليم الكنائسى».

***«وبالنسبة ليوناردو دافنشى [١٤٥٢-١٥١٩م]. . فمن أى معين يا ترى نهل هذا المفكر ثاقب النظر المتعدد المواهب، ليشكل حدثا عالميا؟ . .**

إن الطبيعة، لديه، انبساط للربوبية التى تتسع لكل شىء، وهى فى كل شىء أيضًا. إن الله هو طبيعة سائر الأشياء، وبفضل الحضور الإلهى هذا، فقد أضحى ذلك ممكنًا للإنسان أيضًا، ألا وهو التعرف على الطبيعة الإلهية الحية. . .

وفى البصريات، كما فى الرياضيات استند ليوناردو دافنشى على المؤلفات العربية الشهيرة لابن الهيثم الموجودة فى فلورنسا، وعلى نظريته فى الانعكاس الضوئى، وتجاربه على عدسة العين والعدسات المكبرة، وبالكاميرا ذات الثقب. .

وفى علم طبقات الأرض، كان العالم ابن سينا قد سبقه إلى اكتشاف تشكل التربة، ولم يتوقف عند التجربة وحدها، بل اعتبرها أساسًا لكل معرفة: «**يجب أن ننطلق من التجربة لكى نتقصى القانون**».

ورفض - كذلك - القول بتفاهة العالم وعزلة الخلق الأبدية».

*«ولقد كان كلٌّ من جاليلى[١٥٦٤-١٦٤٢م] وبلانك[١٨٥٨-١٩٤٧م] على دراية بأن الكون يتجاوز، وبلا حدود قوة إدراك نظرتنا إليه وفهمنا له.

وتحديًا للعون الرائع الذى قدمه المنظار الفلكى، فقد درّس جاليلى الإحاطة الذاتية بالعلم، بحيث ارتضى بتقييد الباحثين بالجانب الرياضى للحقيقة، وبالاستغناء عن كل تحديد للجوهر.

إن المتعرَّف عليه هو حقيقة، يقوم على المطلق الذى لا سبيل إلى إدراكه أبدا. والعلم الطبيعى هذا على دراية بحدوده، وبالاعتراف بحدود التعرف البشرى هذا. وتعود فكرة (الجهل الدارى) للفيلسوفين «إريوجينا» و«كوسانر»، على غرار جذب حدود معرفة العقل للفيلسوفين «كانت» [١٧٤٢ـ ١٨٠٤م] و«جوته» [١٧٤٩ـ ١٨٣٢م]. وبالمعرفة حول محدودية الحقيقة، يطوق العقل للأوروبى وفى كل الأزمان اليقين، لكى يتعرف معًا إلى الوجود الحقيقى للشىء الذى ما من سبيل إلى معرفته، إلى اكتشافه، فيه، المتضمّن فى كل ما يتسنى معرفته..».

«إن استكشاف الطبيعة لم يعد بالنسبة للإنسان الأوروبى الموجّه توحيدا وكلية (شموليًا) منذ زمن بعيد عقبة، سبيلاً للانصراف عن الله، ولا للانحراف، وإنما وعلى الدوام طريقًا نحو ما هو مجهول، نحو الربوبية..

ومن المعروف، بما يتفق تمامًا مع توجهات بلانك وأينشتاتن [١٨٧٩ـ ١٩٥٥م] قبيل وفاته بوقت قصير:

«إنه الإحساس الأعمق والأروع، الذى نحن عليه قادرون، منه وحده ينبت العلم الصحيح. ومن كان هذا الإحساس غريبًا عنه، هو الذى لا يستطيع بعد أن يعجب، وأن يفرط فى خشية، فهو الذى يُعد ميتًا روحيًا. لذا فالمعرفة أن يوجد بحق ما هو غير مكتشف، وأن يتجلى بصفته أسمى حقيقة وأسطع جمالاً، الشيئين اللذين لا يتسنى لنا منهما سوى علم ضبابى ـ وهذه المعرفة وهذا العلم، هما جوهر التدين الحق».

***«إن الطبيعة، لدى جاليلى، ليست قابلة للتجربة، للتعرف للحساب فقط، بل هى أيضًا قابلة للاستعمال، وللتسيير وللإفادة.**

إن كتاب الطبيعة، الذى هو فى ذات الوقت كلمة الله، ذو تعبير وانبساط للألوهية، مكتوب بحروف رياضية، وفى سائر ظواهره تتجلى الربوبية بأوضح صورها وأشدها إدراكًا، وبالنظام الرياضى السائد، الذى يرى الباحث الطبيعى نفسه ملزما بقراءته».

***«ولقد قال «جوردانو برونو»[١٥٤٨ـ ١٩٦٠م] الذى عُومل كمنشق عن المسيحية.. وملحد.. والذى قضى سبع سنوات فى السجون تنفيذًا لحكم محاكم التفتيش.. لقد قال:**

«إننا نبحث عن الله فى القانون الطبيعى الثابت غير المستقر، وفى الوجدان المفعم بالخشية، ونبحث عنه فى سطوع الشمس، وفى جمال الأشياء التى تنطلق من حضن مناغاة الأم لأبنائها، وفى إطلاله النجوم(طلعة) التى لا تحصى، التى تتلألأ فى حاشية السماء، ولا تقاس».

* «ولقد اعتبر«روجر بيكون»[١٢١١ـ ١٢٩٤م] دراسة اللغات اليونانية والعربية والعبرية أمرًا لا مناص منه من أجل تفهم أفضل للإنجيل المغلوط، ومن أجل دلالة اللفظ وترجمات أرسطوطاليس وسائر علماء المسلمين. وأصدر رؤساء الطائفة أمرًا بنفى الملحد المزدرى للسلطات المقدسة عشر سنوات من أكسفورد ـ إلى باريس. . وصدر عليه الحكم بالسجن سنة ١٢٧٨م، ثم بالسجن المؤبد، إلى أن حرره الموت سنة ١٢٩٤م، بعد خمس عشرة سنة قضاها فى السجن».

*«أما «سيجر» ـ من باربانت ـ الذى رفع راية ابن رشد[٥٢٠ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ـ ١١٩٨م] فى الحقيقة المزدوجة ـ والذى تصدى للحكم الصادر ضده بشجاعة، واستنجد بالبابا، فقد قضى الـ ١٥ سنة المتبقية من عمره فى سجن البابا، ومات فيه مخنوقًا. .».

* «إن كبلر»[١٥٧١ـ ١٦٣٠م] هو الشخص الذى كان يمتلك الحرية النفسية والشجاعة للإطاحة بالعقيدة اليونانية ـ الأرسطية حول مسار النجوم الدائرى، الذى أدى إلى إعاقة شديدة، على النحو ـ أى الإطاحة ـ الذى اقترب به الفلكيون العرب فى القرن ١١. .»

* «وإنه لمن الخطأ ـ بكلمات الفيلسوف الشاب«كانت»[١٧٤٢ـ ١٨٠٤م] بناء حكم عام: أن نعتقد بأن العلم الطبيعى اعتمد، كشرط أو نتيجة محتمة، إطلاق المادة، وميكنة الحياة الإنسانية، ووداع الله من هذا العالم وداع لا لقاء بعده! . إذ على العكس، فقد كان ممكنًا فوق أرضيته حكمة دينية جديدة لحقيقة الموقف واتخاذ موقف. . من المادة تنزع به الشوائب التى ما زالت عالقة بها من قبل «توما الأكوينى» [١٢٢٥ـ ١٢٧٤م]، وأن يرتفع بها إلى مرتبة برهان إلهى منظور، مدرك، يمكن التعرف إليه، كسبب لكل ما هو صغير وكبير، لكل ما فيه حياة وما ليس فيه، ولكل القوى المؤثرة الموجودة فى الطبيعة والانتظام الداخلى. وهذه الوحدة الداخلية للكون كله هى الفرضية الأصلية لكل المعرفة العلمية فى الفهم الأوروبى».

* «يقول «آرثور ستانلى أربجتون» [١٨٨٢-١٩٤٦م]:

«إن الفيزياء الحديثة تقودنا بالضرورة إلى الله، ولا تبعدنا عنه، ولم يكن أى مخترع للإلحاد عالمًا طبيعيًا. بل كانوا جميعًا فلاسفة، أنصاف معتدلين جدًا».

* ويقول «ألبرت أينشتاين» [١٨٧٩ - ١٩٥٥م]:

«على كل باحث طبيعى متعمق، أن يكون على مقربة من نوع ما من الشعور الدينى؛ لأنه قد لا يستطيع أن يتصور بأن الصلات الدقيقة النادرة التى يخشاها، قد صدرت عنه بادئ الأمر. ففى الكون المبهم يتجلى فهم تأنٍّ بغير حدود. إن التصور الجارى القائل بأننى ملحد ينطوى على خطأ جسيم. من يستخلصه من نظرياتى العلمية، فقلما يكون قد أدرك غايتها».

*«وعند الفيزيائى «هايزنبرج» [١٩٠١ - ١٩٧٦م]:

«الله موجود فى العالم، وفىّ أنا. إنه يبرهن عن ذاته فى مركزية وانتظام سائر الأشياء وكل المستجدات، كما أنه خلف كل الظواهر الصلة الملموسة، التى ينهل الإنسان من مأمنها قوته، والذى لا يمكنه الشك فى حقيقتها» هنا اكتمل التطابق بين العقيدة والمعرفة..

لقد كتب «هايزنبرج» - أيضًا -: إن التقسيم المزدوج، حسب التصور الأرسطوطاليسى كان بحق خاصية شيطانية، إنه يؤدى من خلال التكرار المتصل إلى الفوضى فقط. غير أن الإمكانية الثالثة التى برزت إلى السطح بواسطة النظرية التكاملية الكمية، يمكن أن تكون مثمرة، وأن تنفذ بالتكرار فى حيز العالم الحقيقى».

*«إن العلم الطبيعى الأوروبى كان ممكنًا فقط على أرضية إيجاد تفسير دينى آخر للطبيعة، وعلى المفهوم الإلهى لمغزى المادة، التى، لا كما يقول توما الأكوينى عنها، بأنها مصابة بكل ما يخطر على البال من شوائب، بل هى سامقة للانبساط الإلهى المنظور، المحسوس، الذى تتحقق وحدته وتنسجم فى شتى الصور - وتتجسم «وتتجمع لتتحد انطلاقًا منها - للتوحد»[١٧].

* * *

*«إنها خديعة الاعتقاد بأن فى مقدور العلم معرفة كل شىء، ونظرته للحقيقة على

أنها الكل فى الكل. وبذلك فإن الحقيقة كلها، وجميعها، ما يتعرف إليها هو، ويمكن صنعها بالتقنية كاملة، هى تلك المخاوف والذعر، وانعدام الغاية والأمل، والاستسلام والعدوانية، والمعاناة والعنف اليومى، كلها جميعًا من جريرة تلك الخديعة..

إن الفكر النهائى نفسه لا يصبح آنئذ واقعًا، إلا إذا تواجد فى ضوء اللامتناهى. **إن العلم لا يدرك دائما سوى جزء من الحقيقة**، والصورة العلمية وإن كانت مصيبة حقًا، فإنها مع ذلك صورة معنوية، لا تصرف النظر فقط عن النوعيات والصلات ذات الصفة غير السببية، كالتعرف إلى الحياة والموت، البداية، أو انعدامها، أجل وعن الإلمام بالشروط المسبقة الخاصة بها.

وحيث إنه لا يقدم حول هذه الأمور دومًا إلا بعض وجوه الحقيقة الكلية بحسب موقع المشاهد ووفق سؤاله، للسبب الآتى فقط؛ لأنه كنتيجة لتنوير المجالات الخاصة دوما، فقد أبقى على فراغات عريضة تتخللها، وحتى ما قدم منها بشكل غير مباشر، دون تنوير.

لقد سلط الضوء، بحيث إن ما كان قابلاً للإدراك رياضيًا للحقيقة الموضوعية، قدّم عن العالم صورة واهية ضحلة، يستلزم بالضرورة فهمًا تجريبيًا، فى سائر مناحى الحياة:

لقد نظر إلى العقل بمثابة الآلة الوحيدة التى يحتاج الإنسان إليها، والمناسبة له لتسديد ما يفعل ويترك، وللتغلب على المستجدات التكنولوچية الآخذة فى التعقيد».

إنه الأسر فى بنى الفكر الثنائى القديم، انشطار الإنسان فى جانبيات متطرفة، هو الذى أمد فى عمر الأزمة، أو فى اشتدادها».

«والزلزال الذى نعيشه اليوم نشأ فى الأصل عن شق عصا الطاعة الذى أخذ فى التزايد ضد الإله المسيحى الذى أصبح غير جدير بالاعتقاد، كما شخّص «نيتشه» [١٨٤٤ـ ١٩٠٠م] ذلك، من خلال استئصال الآخرة، التى جردت من قيمها كذلك من لدن المتنورين. والآن تحققت لعنة الثنائية من كل شكل»[١٨].

* * *

-٩-

أصول النهوض الإسلامى

*«عندما تحررت البلاد العربية من نير الاستعمار الذى جثم فوقها قرونا . ألفت نفسها - على اختلافها - تواجه متطلبات العصر الحديث . . وأخذت تسلك سبلاً مختلفة كى تشق طريقها إلى العالم الحديث لتفسح لنفسها مكانا فيه، والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم الفتية، وأن يحتذوا سيرة السادة اللاحقين وحياتهم الناجحة، وطريقتهم فى العيش والتفكير، وعاداتهم، وما حققوه من إنجازات مادية ومثل أخلاقية، وهكذا يتأوربون كالأوروبيين، ويتأمركون كالأمريكيين، ويتروَّسون كالروسيين.

على أن ضد هذا الخطر الجديد، الذى بات يتهدد الاستقلال الداخلى بعد التحرر خارجيا، تداعت القوى على اختلاف تجربتها فى المعاناة فى ماضيها مع الاستعمار وشدة اغترابها - وأعلنت رفضها أن تكون مجرد تقليد أعمى للمدنية الحديثة الغربية . .

إن تلك «الأصول» و«الجذور» التى ينبغى على العالم العربى أن «يجدها» ويتعهدها حتى «يشق طريقه إلى أمام» - والتى ذكرتها فى كثير من محاضراتى فى المغرب العربى كله - هى:

١- اللغة العربية . . فهى المفتاح الرئيسى إلى عالم الفكر الذاتى للعرب.

٢- الدين، بصفته المحور الذى يدور حوله وجودهم، فى كل ما يتعلق بأمورهم، ونعنى بذلك الإسلام النقى من العناصر غير الإسلامية، المنفتح على العالم، الذى لا يعارض التطور العقلى . .

٣- وعودة الوعى، والرجوع إلى الهوية الذاتية، الذى يتطلب:

التنقيب عن الماضى الفكرى المدفون تحت الأنقاض تماما، واستيعاب أسباب نشوئه، واكتماله واكتهاله، ثم تقهقره واندثاره، والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل، فالعرب انطلقوا من قبل أيضًا من البداية، وكانوا آنذاك وسط حضارات تفوقهم فلم يترددوا فى الأخذ عن أولئك الغرباء ما رأوه ضروريًا لبقائهم، دون أن يحاكوا محاكاة عمياء، ثم واصلوا فوقه البناء بطريقتهم الخاصة، وبالوسائل التى أتاحها لهم نبوغهم المميز. وصاحب هذا تطويرهم لأساليبهم النابعة منهم، وهكذا غدوا أكفاء لخلق إبداع فكرى جديد، قيم من الدرجة الأولى، منتم إليهم.

فالتعلّم من الماضى لبناء المستقبل حق مفروض.. ورفض غلو التقوقع والانغلاق.. وغلو الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط، المؤدى إلى الاغتراب.. هو شرط للنجاة من الانحياز لجبهة واحدة، الأمر الذى يتهدد الحياة..

لقد أعقب المرحلة الأولى التى تلت الاستقلال، والتى اتسمت - على جميع المستويات - باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيديولوچية الروسية قدوة لها، انتكاس المسيرة وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب دخيل، ورفضه، وبخاصة ما أتى من «الغرب» وقد ارتبط ذلك بإحياء الإسلام والرجوع إليه.

إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا. نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة بأن تلطخه بالسواد، وإذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة فى حقه، والجهل البحت به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه فى أن يكون كما هو..»[١٩].

* * *

الهوامش:

(١) سيجريد هونكه «الله ليس كذلك»ص٥٣ ـ ٥٥، ٤٥، ٣٠، ٢٠، ٢٥، ٢٢، ٣٣، ٣٤. ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

(٢) المرجع السابق. ٤٠، ٤٣.

(٣) المرجع السابق. ص ٦٦، ٦٣، ٧١، ٧٢.

(٤) سيجريد هونكه«العقيدة والمعرفة»ص ٣٣، ٥٨، ٥٩، ١٢٤، ٢٢، ٣٢، ٣٤، ١٦٨، ٣٦، ٣٧، ١١١. وترجمة عمر لطفى العالم. طبعة دمشق سنة ١٩٨٧م.

(٥) «الله ليس كذلك» ص ٧٧، ٧٨، ٣٧. و«العقيدة والمعرفة»ص ٢١، ١٥٩، ٢٣، ٤٢، ٢٠١، ٢٠٣، ١٩٤، ١٨٧، ١٨٢، ١٨١، ١٦٧، ١٦٥، ٨٣، ٩٤، ٥٢، ٥٣، ٦٣، ٥٥، ٧٩، ٢٢٧، ١٩١، ١٩٢. و«فضل العرب على أوروبا» ـ لذات المؤلفة ـ ص ٢٧٤، ٢٧٥، ٩٠، ٩١. ترجمة: د. فؤاد حسنين علي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

(٦) «العقيدة والمعرفة»ص ٢٤ـ٢٦.

(٧) «الله ليس كذلك»ص ٨٠، ٨١.

(٨) «العقيدة والمعرفة»ص ١٠٣ـ١٠٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٥١، ١٥٢.

(٩) المرجع السابق. ص١٥٨، ١٥٩، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٣، ١٩.

(١٠) المرجع السابق. ص ١٢٤، ١٢٥، ١٢٠، ١٢١، ١١٥ـ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦.

(١١) المرجع السابق. ص ١٣٤ـ١٣٨.

(١٢) المرجع السابق. ص ١٥٤ـ١٥٧، ١٨٠، ١٧٠.

(١٣) المرجع السابق. ص١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٢٨، ١٤٦، ١٤٧.

(١٤) المرجع السابق. ص١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٣٢.

(١٥) المرجع السابق. ص١٤٠ـ١٤٢، ١٥١، ١٥٠.

(١٦) المرجع السابق. ص١٨٥، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٠، ١٦١.

(١٧) المرجع السابق. ص٦٠، ٨٦، ٨٧، ٧٤، ٢٠٨ـ٢١١، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٣١، ٢٢٥، ٢١٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٣، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٠٦.

(١٨) المرجع السابق، ص ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٥.

(١٩) «الله ليس كذلك» ص ٩٥، ٩٦، ١٠١.

***